قيـــلـــولــــة أحـــــد خـــــريــــفـــــي

روايـــة

هشام بن الشاوي

لا يكفي أن نكتب نصوصًا تسيل لعاب القارئ لكي نكتب رواية

الضجر... كلمة مقيتة.

يحاول أن يبحث عن تسلية ما، لكن دون جدوى، وفي أغلب الأوقات حين "تتلفن" قريبته، وغالبًا، ما تتصل من هاتف ذلك المكان، الذي تعمل فيه - ربما- بائعة. بصراحة، لا يعرف، ولم يحاول أن يعرف... تجده - وحده- في البيت. تسأل عن أمه، تضايق من كثرة هذه الاتصالات.. لأنها لن تدفع الفاتورة. صار يفكر في عدم الرد عليها عند رؤية الرقم. تخيلوا شخصًا يكابد خواءً كهذا، يفكر في كتابة رواية جديدة.. رواية ثانية، وقد صار عاجزًا عن كتابة القصص القصيرة. ما يسبب له الألم هو التفكير في جماليات الكتابة وتقنياتها..

بسبب هذه الرغبة صارت حياته بلا طعم. الكتابة مرادفة للبطالة في المغرب، كما في سائر بلدان العالم الثالث. أعتقد أن الإبداع يفسد حياة صاحبه، فهي تذيقه شتى أصناف العذاب: الإحباط حين يرى كتّابًا - بلا موهبة- ينشرون في مجلات كبيرة، و منهم من صار مراسلًا لبعض الصحف... ثم الملل من كل شيء.

مؤخرًا، وهو كما العصفور يجمع عش هذه الرواية بكى بحرقة.. ليس حزنًا على وفاة إحدى شخصياته، ولكن الخيوط متفرقة، وهو يصمّم على كتابة رواية بأي شكل، لهذا صار يفكر في التخلي عن السهر حتى وقت متأخر.. على ضفاف السيليكون. إن مشروع هذه الرواية الملعونة، جعله يفكر فيها ليلا، في حين لا يستطيع أن يفعل ذلك نهارًا. الليل الخريفي أكثر هدوءً، وكثيرًا ما عاتبته أمه لأنه "قلب يومه" بتعبيرها؛ يسهر طوال الليل، ولا يستيقظ إلا بعد الثانية أو الثالثة بعد الزوال. مذ سيطرت عليه فكرة إنجاز رواية، اختار لها كاسم أولي : "قيلولة يوم خريفي". الاسم يبدو غير لافت، بيد أنه عنوان مبدئي، وربما يتغير لاحقًا.. وهذا ليس مهمًّا. كتابة رواية تحتاج إلى سلام داخلي، وليس إلى وقت ثالث، لأن حياته

- ببساطة- كلها وقت فراغ، ولا أتذكر من الكاتب القائل بأن من يريد كتابة رواية يجب أن يكون لديه رصيد في البنك، وهو كاتب أجنبي...

- أف. توقف، رجاءً، عن الهذيان. ما علاقة الوضع الاعتباري للكاتب باتصال قريبتك؟ ثم لماذا تتحدث بضمير الغائب؟ وما علاقة كل هذه التفاهات بالجريمة؟

- أية جريمة بالضبط؟ هل تقصد اغتيال "عبد الله بْرَيْطل" أم عاهرة المسنجر؟

- اغتيال !! ألا ترى بأن هذه الكلمة لا تليق بشخص يسمى برطال؟

- مرة، قابلت صديقًا من فاس، وفهمت منه أنه يقصد بالبرطال عصفور "الجّوج". لم أسأله أي نوع من العصافير، ولم أخبره بأن جدي حين يشير إلى طرد البرطال، فهو يقصد الصبيان، حين يجتمعون ويصير ضجيجهم مثل ضجيج عصافير الدوري فوق أغصان أشجار الأوكالبتوس.. في موسم التزاوج، حتى لا يسخر مني ومن لهجتي الدّكّالية، الموغلة في بداوتها.

صمتَ برهة، أجال نظراته في المكان. أحس بالنفور من كل شيء.. الحجرة صغيرة ضيقة، وشباكها أشبه بكوة، بخلاف تلك التي خصصت مكتبًا لمدير دائرة الشرطة.. شبابيكها وضاءة فسيحة، تغمرها ضياء الشمس طوال النهار لعدم وجود أية بنايات حول المبنى، وخلف مكتبه الكبير الفخم رفوف رصت عليها ملفات كثيرة. رنا إلى الآلة الكاتبة القديمة، يومئذ سأل الضابط :" لم لا تواكبون التقدم؟".

- لقد التقينا من قبل، وطلبت مني جهاز كمبيوتر. (يومها رد في سره : "وهل تحتاج وزارة الداخلية إلى أن أتصدق عليها بحاسوب، وأنا العاطل عن العمل؟"). لقد كتبت عن ذلك اللقاء، أو بمعنى آخر وظفته في قصة يمكنك البحث في "جوجل" عن "نصوص ماجنة".

غاب المحقق دقائق في مكتب مجاور، وفي حضرته.. شرع يقرأ النص المطبوع:

"أبلغني صديقي "س.ع" بأنه يفكر في العمل صيفًا في مقهى، ليكتب عن الفتيات اللواتي يأتين بصحبة رجال. إنه يفكر في الكتابة عن ثيابهن القصيرة وطريقة تدخينهن لسجائرهن. لكنني سأختصر المسافات، مادمنا نود كتابة نصوص ماجنة.

الناس من حوله كالأشباح في الزقاق الموحش. قبل سنوات، كان يغرق في الارتباك، ويفكر في تغيير الطريق، حتى لو قطع مسافة أطول، ليتجنب ذلك الممر سيء السمعة، حتى لا يعتقد من يراه أنه سيتسلل إلى أحد تلك البيوت. لكنه

لم ينسَ إحساسه بالزهو، وإحداهن تشير إليه برأسها أن يتبعها، فأطرق غارقًا في ارتباكه وعذريته.

كانت تلك أول مرة يرى فيها امرأة تتخلى عن كبرياء بنات حواء...

****

يرنو إلى غمزات إحداهن، والطريقة التي يقفن بها على عتبات البيوت. ينهشه الفضول، يفكر في معرفة ما خلف تلك الأبواب. يلتفت حواليه، وإحداهن تدعوه للدخول بحركة رأسها. يدلف بسرعة : "لا بد أن أتفوق عليك - يا صديقي- بحرارة التجربة... (هتف لنفسه في حبور)، فلا يكفي أن نكتب نصوصًا تسيل لعاب القارئ، لكي نكتب رواية. أنت شاعر يريد كتابة رواية، لكنني كاتب قصة اصطلى - قبلك- بنار السرد".

****

الضابط الكبير كان لبقًا للغاية، تمامًا كأولئك الذين يشاهدهم على شاشة التلفزيون، بينما الضابط الأصغر تبعني خارج المبنى القاتم، من أجل دراهم معدودات، زاعمًا أنه تستر علي، ولم يخبر رئيسه بأنني أتلفت البطاقة الإلكترونية ودفتر الحساب البنكي، فاشترط علي البنك الإبلاغ عن ضياعهما من أجل تيسير عملية إغلاق حسابك البنكي.

صارحت الضابط بأنني تخلصت منهما في لحظة نزق، لأنني لم أعد بحاجة إلى الحساب، وقد تتراكم عليه المصاريف. في المتجر المجاور، طلب الضابط تعبئة رصيد بقيمة عشرين درهمًا، وأملى رقم هاتفه الجوال على البقال. حين مد لي البائع بقية المبلغ، امتدت يد الضابط إلى القطعة النقدية في خفة، وترك لي الورقة المالية : "باشْ ندير قهيوة.."، وبدا مبتهجًا كمن حقق انتصارًا، وقلبي يذرف دمعه، ويتألم في صمت: "كيف يقتسم معي الورقة النقدية، وهو الموظف، آخذًا أكثر من نصفها؟".

****

رآه من بعيد، وبصحبته رجل ضخم، بشارب كث. انقض عليه الرجل كئيب السحنة، وهو يغادر المبغى. أمسكه بغلظة، حاول أن يشرح له أنه جاء من أجل كتابة قصة قصيرة، ولم يفعل أي شيء : "صدقني، لم أفعل معها أي شيء، فقط كنت أريد أن أعرف ما يحدث هناك...".

لاذ بالصمت، والرجل غير مكترث لكلامه، ورماه في جوف السيارة، التي كان يحس بقلبه يخفق بشدة كلما رآها، تعبر من أمامه، متخيلًا أنها ستتوقف، وينزل منها شرطي طالبًا منه الركوب. سأله الضابط ساخرًا : "أهذا أنت؟". أطرق برأسه، وغمغم بكلمات متذمرة لاعنًا صديقة "س.ع"، والروايات التي كتبت، والتي لم تكتب بعد".

صمت لحظة، وسأله الرجل :

- هل القصة حقيقية أم خيالية؟

- لم نلتق إلا مرة واحدة، وملفي أمامك ناصع البياض، ولم يسبق لي أن دخلت مخفر شرطة، والمرة الوحيدة التي وطأت فيها عتبة إدارتكم كان من أجل الإعلان عن ضياع بطاقة بنكية.

- طبعًا، استغليت موهبتك القصصية للنيل مني، بطريقة فنية في الفقرة ما قبل الأخيرة، مع أنها تبدو مقحمة على القصة.

تمطى الضابط شابكًا يديه خلف رقبته، وسأله :

- في بداية حديثك، أشرت إلى اتصال قريبتك، وسؤالها عن أمك، فما علاقتها باتصالك بليلى بريطل؟

عقدت الدهشة لسانه عند سماع اسم "بريطل"، لم يكن يصدق أن يكون لها نفس اسم بطل روايته. صمت لحظات :

- ألا ترى بأنه لا يمكنني ممارسة جريمة قتل تمت عصر أمس، بمدينة فاس، التي تبعد عني بمئات الكيلومترات، وطبعًا، لست ممّن يتواجدون في أكثر من مكان في وقت واحد؟

- ولماذا اتصلت بهاتفها الجوال في وقت متأخر؟

- لأنني ببساطة، كنت أحس بالضجر، وكان الإنترنت مع أخي، وكان رقم هاتف ليلى مسجلًا عندي، مع أنني لا أعرفها، وحين اتصلت ابنة خالة أمي، آخر مرة، تكلمنا كثيرًا.. كانت تتكلم عن ضرورة الخروج من قوقعتي، والاستفادة من تجارب الحياة. لم أخبرها بأن لدي "أعدقاء" من عدة بلدان عربية، ومن المغرب أيضًا : كتّاب وشعراء ونقاد.. الكتابة شأن خاص، ولا يمكنني الحديث عنها مع أي كان، حتى إخوتي نادرًا ما يقرأون ما أنشر في الصحف والمجلات.

صراحة، لقد فوجئت بأنه مقبوض علي هذا الصباح، وبسبب "مسج". كنت أحس بالضجر، لو كان الإنترنت معي لأضفت إميلها إلى قائمة المسنجر، أنا كاتب ولست مجرمًا، والكاتب ليس ملاكًا. وأحيانًا، قد يخوض تجارب غير مشرفة لكي يطفئ نار فضوله... قبل أسابيع، وجدت في أحد المواقع الإباحية مقطع فيديو لها، لكن لم يكن في المقطع أي وضع مخل بالآداب، وأعدت البحث بوضع اسمها فوجدت أكثر من فيديو لها، مع عبارات تشير إلى كشفها عن مفاتنها، وهناك موقع

جنسي اكتشفته أمس زوالًا، لا يظهر مع نتائج البحث الأولى، بيد أن ذلك الحقير - ناشر المقطع المصوّر على اليوتوب- وضع اسمها الكامل، عنوانها البريدي والإلكتروني ورقم هاتفها الجوال، لكن يبدو أن المقاطع حذفت من اليوتوب..

- يجب التأكد من اسم واضع الفيديو.

- ولكن لماذا قبض علي؟ هل أنا متهم بقتل امرأة لا أعرفها، ووحدها المصادفة جعلتها تشترك مع بطل روايتي في اللقب.

استوى الضابط واقفًا، أشار إليه أن يتبعه، وعلق ضاحكًا، وهما يقفان على باب مكتب :

- تقصد عبد الله بريطل الذي قمت باغتياله.

جلس الضابط إلى مكتب السكرتيرة، وقف الكاتب بجانبه، وهمس في أذنه أن يشير لها بمغادرة المكان، وبعد دقائق، فتح أكثر من متصفح، وأشار بإصبعه أسفل تلك الفيديوهات، حيث تواريخ نشرها والاسم المستعار لناشره:

- الآنسة ليلى يبدو أنها انتحرت حين علمت بفضيحتها، ولم تعلم بذلك إلا مؤخرًا.. بدليل وجود أكثر من مقطع، ففي كل مرة، كانت تلبس ثوبًا معينًا ومنديلًا مغايرًا. لا تنسَ مسح ذاكرة الحاسوب، حتى لا ترى...

وأشار برأسه ناحية الفتاة الواقفة أمام المكتب باسمًا، وبنبرة متوعدة هتف الضابط :

- الآن، اتضحت أسباب الانتحار مبدئيًا، ولن يفلت من العقاب أولئك الكلاب، الذين يحترفون الاستمناء أمام الشاشة.

تنبح ذلك النباح الأشبه بالتوسل المتوجع، كما تفعل الكلاب عند رؤية صاحبها الغائب معبرة عن أشواقها الجريحة

بعد الظهيرة، تغري الشمس الخريفية بالاسترخاء اللذيذ، والسكون يخيم على حي النجد. الأحد يوم الكسل المقدس.. تتمدد فوق الرمل، تحس بدفئها يتسرب إلى مسامك، والقطة الوديعة تتمسح بساقك، كأنما تشاطرك افتقاد أنيسكما العجوز. ترنو إلى كوخ عبد الله بآجره الرمادي، تستغرب تصميمه على البقاء في "البرّاكّة" وسقف الطابق الثاني قد قارب البناؤون على الانتهاء منه، بينما بقية العسس اختاروا إحدى الغرف الدافئة بالورش، تفسر الأمر على أنه يفضل السكن في "البرّاكّات"، التي التهمت عمره.. تحدق في تجاويف سدت بمزق أكياس الإسمنت وأوراق الجرائد اتقاء لشر برد ديسمبر. تتأمل السقف القصديري، الذي رميت فوقه أشياء كثيرة، أغلبها لا يصلح لأي شيء، بيد أن عبد الله يحب "القُش" مثل الجرذ، كما يقولون عنه، ويقضي سحابة نهاراته في البحث عن سقط المتاع في الجوار.

حين يطلب منهم في فترات استراحتهم مساعدته في ترتيب الكوخ، يعيدون رمي تلك الأشياء التي لا تصلح لأي شيء، متعجبين من وجودها بعد أن تخلى عنها أصحابها، لكنهم لا يندهشون عند اختفاء بعض تلك التحف صبيحة يوم إثنين، فيوقنون أنه أخذها معه إلى البادية، ويتساءلون فيما بينهم : "من يقبل أن يقله معه، وهو مثقل بكل هذا "القش"، فمن يراه من بعيد يظنه معتوها؟"، ويشفقون على شيخوخته التي لم يرحمها أبناءه، ملقين عليهم اللوم. يتألمون أكثر لأنه لم يفلح في أن يتعلم المهنة ويصير بناءً ماهرًا مثلهم أو فلاحًا، وأقرانه صاروا ملاك أراض، لأنهم يعرفون أن من في مثل سنه تلفظه أوراش البناء، بلا رحمة... ويشيرون إلى صلة النسب، التي تربطه بالمقاول، الذي شغله مكتفيًا بحراسة الورش، لأنه لن يتحمل

الأعمال الشاقة.. ومن قبل، كان يعمل مياومًا - نهارًا- في الورش، ويتحمل - ليلًا- مسؤولية كل شيء فيه.

اعتدت منذ أعوام أن تسمع كل من يعرفونه ينادونه بـ "ولد عمي"، وأغلب الظن أن التسمية مستوحاة من أغنية شعبية لمطربة دكالية شهيرة، وكثيرًا ما تناديه مثلهم.. بدل "عبد الله خالي"، كما كنت تفعل في طفولتك، على رغم كونه خال أمك. شيء ما مبهم كان يشدك إلى "ولد عمي".

تعلو شفتيك ابتسامة مغتصبة، حين تستحضره، وهو يحكي لك كيف أن خاله المقاول الراحل ضبطه يغني في الدرج، وهو جالس محتضنًا الكيس، الذي كان يحمل فيه الرمل إلى الطابق العلوي : "جُوجْ بْحالي يْسيزيوْ خالي". لم يغضب الخال من غناء ابن أخته فرحًا بأن إثنين مثله سيجعلانه مفلسًا.

كثيرون يتغاضون عن أخطائه الصغرى. ومن يعاشره - عن قرب- قد يتقزز من وسادته، التي بلا لون من كثرة الأوساخ، والأردية المهلهلة التي ترك فيها أصدقاؤه الفئران والجرذان ثقوبًا تخلد ذكرياتهم معه، وبعد تناوله ما تبقى من عشائه البائت يرمي أوانيه جانبًا ببقاياها الدسمة، برتقالية اللون، مكتفيًا بصب قليل من الماء فيها، ولن يغسلها إلا ليلًا حين يحتاج إليها...

أفراد عائلتك، كانوا يستغربون لارتباطك به في حين لا أحد يحبه تقريبًا، بينما تعامل باقي العائلة بفظاظة، منغمسًا في عزلتك الفاخرة. تحتمي بالصمت حتى لا تفضح نفاقهم، وتظاهرهم بمحبته في حضرته. تخمن أن انعزاله في أكواخ الأوراش أفسد علاقته بكل من حوله، حتى أبناءه. ففقد احترام الجميع.. الجميع يرونه مخبولًا ومعتوهًا لا يطاق، بسبب مزاجيته...

بيد أن ما يثيرك أكثر قدرته العجيبة على جعل حيوانين على الرغم من العداوة الفطرية بينهما يتآلفان. حين تزوره - في غير أيام الآحاد للسؤال عنه- تجده يسير نحو الخم الصغير المجاور لكوخه، والدجاجات الثلاث والديك اليتيم يتبعونه، وهو يحمل إناءً به بعض الحبوب التي جلبها من القرية، فتتبع الكلبة - التي تكون حرة طليقة، ويربطها مساءً حتى لا تبتعد عن المكان أو يغويها أحد الكلاب- والقطة الموكب الصغير، وكأن تلك المخلوقات تغار من بعضها، وكل واحد منها يود أن يستحوذ على حب "ولد عمي".

تراه بنفس قامته المديدة ويديه المعروقتين بأصابعهما الرفيعة، المتغضنة كوجهه. وجه لفحته الشمس، يكسوه زغب أبيض مهمل، لا تصادق الموسى خديه إلا عندما يقرر السفر إلى القرية، فتسري الهمسات والغمزات بين البنائين، في ظهيرة ذلك

السبت، ويدركون بأنه قرر أن يشن غارة على قلاع "التيبارية"، ولا يتضايق إن نطقوا باسم زوجته...

أحيانًا، يقرر السفر دون استشارة المقاول، فيغضب عندما يفاجئه بقراره السفر هذا الأسبوع، مشيرًا إلى وجود سلع جديدة قد تتعرض للسرقة في غيابه.. فيصمت عبد الله، على مضض، شاخصًا ببصره ناحية قطيع غنم بعيد، يرعى بالقرب من السكة الحديدية.

هل يحتاج المرء أن يستشير أحدًا عند حلق ذقنه؟

سيبدو الأمر مضحكًا، وهو يتوجه ناحية سيارة المقاول في صباح يوم سبت ليبلغه بقراره السفر فجأة، لأنه يعرف أنه في مثل هذه الأوقات يكون متضايقًا، ويعتقد أن ذلك بسبب الأموال التي سيصرفها مساءً، كأجر للعمال، وسيغضب أكثر إن طلب منه البحث عمّن يبيت الليلة بـ"البراكة"، ولا أحد يحب قضاء ليلة السبت الواعدة بالمباهج في كوخ منعزل.

أبلغك أحد البنائين، وهو غارق في الضحك، حين اعترض قريبه على ذهابه، بحجة أنه كان هناك الأسبوع الماضي، وتساءل : "ماذا ستفعل هناك؟!". انسحب عبد الله صامتًا، وسمعوه يكسر الأواني، وهو يغمغم : "هو ينام في حضنها كل ليلة، وأنا يسألني : لماذا سأذهب وماذا سأفعل؟".

رنوا إلى المرأة السمراء الدميمة، الساكنة بأحد الدواوير المجاورة، وهي تمر بمحاذاتهم بقطيعها، راكبة أتانها، يسبقها ابنها، وهو يهش بعصاه على الغنم، واقترب كلبها من كلبته، كما اعتاد أن يتحرش بها - بالكلبة- كل مساء، فحدق "ولد عمي" في ركوبها الجانبي للأتان، الذي يبرز عجيزتها بشكل فاحش. لم يتحمل تلك الاهتزازات، فجن جنونه وطرد العمال، رمى الكلب بحجر، وركل الكلبة التي تعلقت بساقه. فانكمشت داخل برميل قديم صدئ، لم يعد صالحًا للاستعمال، وجّه عبد الله إحدى فتحتيه ناحية الجدار، قريبًا من باب الكوخ، حتى لا يقترب أحد منه في غيابه.

منظر القطة والكلبة المسترخيتين تحت أشعة الشمس في عناق مدهش، جعلك تصاب بعدوى الرغبة في النوم، تمامًا مثلما تشاهد على شاشة التلفزيون شخصًا يتثاءب فتجد نفسك لاشعوريًا تتثاءب. (هل تجعلك عزيزي القارئ كلمة "تثاءب" تتثاءب مثلي الآن؟ أرجوك، لا تنم قبل أن تكتمل الحكاية).

تسمع أنين الباب، وهو يفتح، والكلبة تنبح ذلك النباح الأشبه بالتوسل المتوجع، كما تفعل الكلاب عند رؤية صاحبها الغائب معبرة عن أشواقها الجريحة بكل جوارحها، تنتفض من غفوتك الكسلى. تتمطط...

كان مجرد حلم..

لا شك أنه تسلل خفية إلى القرية، لم يعتد أن يتغيب حتى هذا الوقت عن الكوخ، حين يخرج للتسوق أو التنزه، ولا أحد بالجوار يمكنك أن تسأله عنه. أزف المغيب، وبدأت الدجاجات تحوم حول باب الكوخ مطالبة بنصيبها المسائي من العلف، ومثلها فعلت الكلبة والقطة.. مهرجان صغير من التوسل اندلع بالقرب منك.

إنه مهرجان الجوع، ولا أثر لعبدالله. ما العمل؟ من يتحمل حب كل هذه المخلوقات غيرك، يا بريطل؟

تلمح رجلًا مجلببًا، أعرج بلحية شمطاء، وسحنة كئيبة، تحاول أن تتذكر أين رأيته من قبل، يصدرُ صوتٌ كريهٌ عن بومة بالجوار. تلمحها فوق العمود الكهربائي. تستغرب وجود هذا العجوز السبعيني في مثل هذا الخلاء: "أمازال حيا حتى الآن؟". لقد سبق أن رأيته في طفولتك، وكنت تتشاءم من رؤيته، لأنه صديق وفيّ لعزرائيل.. حيثما شم رائحة الموت، يمم وجهه شطر ذلك المأتم، تخمن أنها تلك الشراهة المعهودة عند الفقهاء، وحبهم الخرافي لأطباق الكسكس. تبصق على الأرض، وتسارع برشق الطائر ذي الرأس المدور بكل قوتك، كأنما ترمي طائر الخرائب، وربيب المقابر.. بحجر واحد.

هل يمكن أن يبني أي كاتب معمار روايته من دون قصة حب تضفي بعض الشجن عليها؟

"يكتبون كتبا جيدة أحيانا. لقد قرأت بعضها، كما قرأت بطبيعة الحال كتبا أخرى سيئة. ولكن لم يحصل أن قام بطل إحدى القصص القصيرة أو الروايات بمواجهة الكاتب، أو واجه ممثل مؤلفا مسرحيا. لقد خدعوني كثيرا عندما قرأت لهم أو شاهدت مسرحياتهم. ولكن الحيلة فيما بعد لم تعد تنطلي علي. يريد أحدهم اليوم أن يفعل بي ما يشاء. سوف أترك له الفرصة. غير أنه سوف يجد نفسه أمام بطل لن يشابه ما كان يفكر فيه. لم أحلم بأن أكون سياسيا أو كاتبا ذات يوم، وبما أن الكاتب يصر على الكتابة عن الناس من أجل المنفعة المادية أو الشهرة، فلماذا لا أشتهر من خلاله؟ أقصد من خلال ما ينوي كتابته. إنه يفكر الآن في كتابة نص قصصي عن شخصيات كثيرة، لكنه سوف يجد معي مشكلة، ذلك أنني لن أصمت، وسوف أتحدث إليه حتى يكف هذه المرة عن الكتابة أو أن يكتب بشكل جيد، حتى يبقى خالدا، وإلا فلنرحل جميعا إلى دار البقاء، إذا كانت ستبقى حقا، أو هي باقية بالفعل. ذلك أمر لا يعلمه إلا الله والكاتب. وطبعا فإن علم الله فوق علم الكاتب مهما علا شأنه أو سفل. سوف أجرب مع الكاتب، وأرى كيف بإمكانه أن يغتصب عوالم كائنات بشرية، جاءت إلى هذا العالم بغير إرادتها مثلما جاء هو نفسه. أعرف أن الكتاب يثرثرون كثيرا، ولكنهم لا يفكرون بشكل جيد في حقيقة وجودهم في هذا العالم الغريب. على الأقل فهو غريب بالنسبة لي، لأنني لم أهضم أي شيء فيه. ويبدو لي أني في رحلة قصيرة. دون جدال، كلنا في رحلة قصيرة. وحسب ما نعرف فقد مر من هنا الكتاب والملوك والقواد والقوادون وباقي أصناف البشر، وحتى الذي يقرأ هذه القصة

سوف يمر من هنا، من هذا العالم الغريب، لكن لماذا لا نقرأ شيئا قليلا عن حياة كما يتصوره الكاتب" *(1)*.

على عجل، تناول إحدى قصاصات مسودته الروائية، دوّن ملاحظة، خطّ تحتها - بقلم أحمر- أكثر من سطر.. وبحركة متوترة. وضع القصاصة عند الصفحة، التي توقف عند قراءتها. طوى برفق الكتاب، وبحنو قرأ : " محمد زفزاف.. أفواه واسعة.."، وقال لنفسه : "لا بد أن أعيد قراءة هذه الرواية".

رن هاتفه الجوال منذرًا بوصول رسالة قصيرة، تطلب منه فيها لبنى، صديقته وقارئته الأولى دخول المسنجر. رد عليها برسالة إلكترونية : "عزيزتي.. لقد حذفت برنامج "المسنجر" من الحاسوب، لا رغبة لي في الدردشة مع أي أحد.. حاليًا، أنا مشغول بكتابة الرواية، وقد أنجزت فصلها الأول، وكلي شوق لمعرفة رأيك..

هذه ملاحظة أحد الأصدقاء، وهو قاص وناقد (2) : (**... بخصوص الرواية أعجبتني البداية التي اقتحمت حبكات النص منذ البدء وهاجمت القارئ. ويبدو أنك ستشتغل بالمحكيات المتوازية؛ أي سرد حكايتين متزامنتين لكل منهما موضوعها وأسئلتها. لكن في الأخير لابد من رابط، ولست بالضرورة مطالبًا بتوضيح الرابط، دع القارئ يخرج من كسله.**

التقنية الثانية هي ما يسمى في النقد الروائي، ولعلك واع بها، بالميتاروائي، الذي حقق تقدمًا كبيرًا في أمريكا في العقد الأخير، وكتب عنه يقطين في كتابة الأخير الصادر عن دار رؤية... وهي طريقة ستتيح لك إقحام رؤيتك للمشهد الثقافي العربي، ولضحالة المكتوب ونمو الفقاعات الأدبية وانتشارها بسرعة النار في الهشيم وتراجع الذائقة الأدبية، ونظرتك إلى مستوى ما يكتب من قص وروايات وشعر...
هذا شيء مهم ونادرًا ما يتحدث عنه الروائيون.

ولدي مقترح: ما دمت بارعًا في استخدام الحاسوب والإنترنيت، حاول أن تدخل مغامرتك في السرد مبينًا مخاطرها، وأثرها على الأدب والإنسان وعملية التواصل التي صارت مفترضة ونسبية أكثر...)".

وهو ممدد على سريره، ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة : "يبدو أنك ستقتلني، يا عبد الله بريطل، لأنني قتلتك في روايتي، وأنت مازلت على قيد الحياة"، همهم متذكرًا السيارة التي كادت تدهسه، وهو يغادر الرصيف عابرًا الطريق شارد اللب، مطرق الرأس.. انتشله من شروده صوت أمومي رخيم : "ليلى، توقفي.. عودي إلى هنا". لمح طفلة في ربيعها الخامس، جميلة المحيا، ممتلئة بالفرح، تركض فوق الرصيف أمامه، تلتفت ناحية أمها، شد خصلة شعرها مداعبًا، وهمس لنفسه : "لماذا

البنات يكن أجمل من الأولاد في طفولتهن، وأكثر براءة منهم؟ (تنهد، وواصل حديثه لنفسه، والدمع يكاد يطفر من عينيه) بماذا سيحس والدا ليلى، إخوتها وأقاربها حين يعثرون - مصادفة- على تلك الفيديوهات الفاضحة لابنتهم، التي صارت تحت التراب؟ لماذا نشقى بشهوات هذا الجسد، ونتعذب به في الدنيا والآخرة؟ من سيصدق أن هذا الجسد النابض بالأشواق ستلتهمه الديدان؟

أليس من سخرية الأقدار أن تواصل حياتها في دقائق المتعة، ويشاهدها آلاف المحرومين، وفي نفس الوقت قد يتواجد بعض المتشردين فوق قبرها.. يشربون الخمر، وربما.. يمارسون الرذيلة فوقه؟".

استوى واقفًا، ذرع الحجرة جيئة وذهابًا، فكر بصوت مرتفع : "لم لا أوظف ثيمة السياحة الجنسية بالمغرب، وتلك النظرة النمطية للمرأة المغربية؟

صحيح أنني رفضت اقتراح لبنى في البدء، بدعوى أنني أخطط لكتابة عمل راق. الرواية تحتاج - حتمًا- إلى الكثير من الحكايا المتشعبة، ولا أعرف إلى أين ستقودني هذه الخيوط السردية المتفرقة. لا أنكر بأنني دوّنت في أوراق المسودة الأولية للرواية أنها ستتمحور حول جريمة قتل بشعة، سيكون ضحيتها عبد الله. جريمة كتلك التي نقرأ عنها في الصحف، والتي غالبًا ما تكون انتقامًا فظيعًا من الهالك.. ببتر عضوه التناسلي، (بصق بلا لعاب : تفو!.). هذا قد يجعل السرد مقززًا للغاية، وسيعتقد القارئ بأن السارد مهووس بالجنس، مع أنني كنت أفكر في إقصاء المرأة من المتن الحكائي نهائيًا. لكن هيهات !!.. هل يمكن أن يبني أي كاتب معمار روايته من دون قصة حب تضفي بعض الشجن عليها؟

إن عبد الله لا يستحق منا - أيها الأصدقاء- هذه الميتة البشعة. المهم أن ننجز المشهد الأول.. مشهد قيلولة يوم الأحد، وقد بدأت ملامحه تتضح بعض الشيء.

ومثلما اعتاد أن ينفذ أية فكرة بمجرد أن تخطر بباله، فيسارع بتنفيذها، ألفى نفسه يضبط منبه هاتفه الخلوي على الساعة الخامسة وربع صباحًا، ووضع شريط كاسيت لموسيقى تركية صامتة، عله يجعل الساعات الثلاث المتبقية بلا أرق. تمدد على فراشه، وقد غرقت الغرفة في العتمة.

---

1 : مفتتح رواية "أفواه واسعة" للكاتب المغربي الراحل محمد زفزاف.

2 : كل الشكر للصديق المبدع إبراهيم الحجري، الذي تحمل عناء قراءة فصول هذه الرواية تباعًا.

أيها الراوي الدكتاتور ... ضع نقطة نهاية لهذا المونولوغ الكئيب كهذا المكان

تبّا لهذا الكاتب البائس، ولكل الكتّاب، الذين يتوهمون أنهم أنصاف آلهة، يطوحون بشخوص رواياتهم - بلا شفقة- من مكان إلى آخر بدون أي سبب مقنع.

بالتأكيد، ستحس بالارتباك أيها القارئ أمام هذا التلاعب السردي، وقد صرت أمام معتوهَين بدل معتوه واحد. سبق أن تعرفنا من قبل. أدعى نور الدين البارودي، شاب في الخامسة والعشرين.. التقينا في حي النجد، حيث كنت في انتظار "ولد عمي"، أنا مجرد شخصية من ورق، أو حكم عليها أن تكون كذلك. كاتب هذه الرواية حرمني من حقي في الحياة.. في الوجود، ولا أدري لماذا. عبد الله بريطل شخصية حقيقية، شخصية من لحم ودم، وكان بإمكان الكاتب أن يمنحني فرصة سرد محكيات الرواية من وجهة نظري، مادام لا يريدني أن أكون مؤلفًا مفترضًا حتى يرضي غروره الحكائي.

****

القبو معتم دائمًا، ومصباح الدهليز الفاصل بين النزلاء القابعين خلف القضبان ومكتب الشرطي الحارس لا يطفأ، ولأن المبنى متاخم للشاطئ، تتحالف الكوة الصغيرة مع برد الخريف اللاسع مساءً.
شكرًا للمهندس، الذي صمم هذا المحبس!!.

تصلصل المفاتيح داخل القفل، تئن البوابة الحديدية الثقيلة، تطل يدٌ واهبة حليبًا أو أحد مشتقاته، خبزًا أو حلوى وسجائر لأحد النزلاء، وقد يقتسم الأكل مع من هم من

مدن أخرى. لا أحد يتحمل حبس يومين من دون طعام. هكذا سمعتهم يبررون كرمهم الغريب. بيد أنني لم أصدق أن يرموننا هكذا، دون حتى كسرة خبز يابس. يتضاعف إحساسي الأبدي باليتم في هذا العالم.

النزلاء يبذرون سأم الساعات الرتيبة بالثرثرة، ما خفف بعض مرارتي أن ابن جيراننا الشرطي عبد الرحمن كان خفيف الظل، لا يكف عن المزاح معهم. ينتابني التعب من رقدتي، أجلس مطوقًا ساقي بذراعي، ثم أتمدد مرة أخرى ملتحفًا بالغطاء القذر. لا بأس، هنا توجد أغطية، لأن الضيافة تطول..

أغرق في صمتي. أسترجع تفاصيل هذا اليوم الملعون. شرطيان يطرقان باب بيتنا، يقبضان علي، دون أن أعرف السبب.. ثم وجدتني في المخفر القريب من السوق، ومن الكوة يتناهى إلى مسامعي صخب الباعة المتجولين، وهدير محركات الدراجات النارية. أتسلى بقراءة ما نقش على الجدران بمسامير أو مفاتيح. تلفت انتباهي عبارة مكتوبة على الباب الخشبي المهترئ :"هل يمكن الخروج بأقل الخسائر؟". أجدني أفكر في كاتب العبارة؛ من دون شك ليس أحد المجرمين أو المنحرفين، ووجدتني أشيح بوجهي عن براز جاف بإحدى الزوايا.

قبل لحظات، سمعت صراخًا وتوسلًا، انفتح الباب، وبركلة من قدمه، دفع صاحب القميص المشجر مراهقًا في غلظة.. كان دون سن الثامنة عشر، وجهه أرخبيل ندوب. بعد ربع ساعة، دق الفتى على الأبواب بقوة طالبًا الذهاب إلى المرحاض. ألتفت إلى ركن المحبس، حيث يشكل حائطان واطئان بلا سقف دورة مياه بلا باب أو حتى ستارة، وسعيد يغط في النوم، وخلف البوابة نزيل جديد يخلع جواربه، حزامه الجلدي، نظارته، يخرج من جيبه مفاتيحه وبطاقة هويته ويسلم أشياءه لعبد الرحمن. شعرت بالغثيان والسائل الأصفر ذي الرائحة النفاذة يسيل بين ساقي سعيد، وكنت أسأل أحمد، الذي لا تلوح على ملامحه أو مظهره أنه صاحب سوابق عن سبب القبض عليه، فأجل الرد علي ليعاتب سعيدًا : " لم تتبول جهة القبلة؟".

كنا نتقابل في صفين، وأحمد البائع المتجول يكرر حادث القبض عليه بزهو، غب شجاره مع أحد أعوان السلطة المحلية، الذي حاول قلب عربة الخضر بكل محتوياتها. أفكر في مفردات هذا العالم الجديد.. إنهم ينتزعون الجوارب والأحزمة الجلدية حتى لا تستخدم كأداة خنق، وبالمفاتيح قد يفقأ أحدهم عين غريم، أو يقطع شرايينه بالزجاج (زجاج النظارات بعد تكسيرها طبعًا). أشعر بالإهانة حين أتذكر الأصفاد التي كبّلونا بها.. عبقرية تقييد اليدين خلف الظهر، تكمن في إحباط كل محاولة للهرب.

بعد الظهر، نودي علينا، وعلمنا من سعيد أنه سيتم ترحيلنا إلى المخفر المركزي. لم يجدوا أصفادًا، فتم اقتيادنا كالبهائم بعد أن شدوا وثاقنا بحبل واحد. كنت أنظر من

خلف النافذة المسيجة لسيارة الأمن الوطني، وأحمد يتحدث مع شرطي عن مقابلة كرة قدم، ستجمع بين فريقين عتيدين مساءً. أحسد الشرطي لأنه سيخلع بذلته ويشاهد المباراة في المقهى أو بيته.. ممارسًا حياته بشكل عادي، دون أدنى إحساس بالذنب ! لم أكن أحب كل الرياضات، لكنني تمنيت أن أشاهد هذه المباراة.. أن أتواجد ببيتنا، أن أحس بأنني حر بين إخوتي.

كنت نائمًا حين سمعت نداء الضابط، ورأيته يستلم كيسًا بلاستيكيًّا من أبي وأخي. نظرت إليهما من خلف القضبان، أطرقت برأسي كسيرًا، وانهمرت دموعي بعد انصرافهما، انتابني الشوق إلى دفء فراشي وحميميته، لعنت في سري شرطي الحراسة الليلية. إنه يذكرني ببعض أساتذتنا، الذين جعلونا نكره موادهم وحصصهم بسبب تجهمهم.. فنقبل على دروس أساتذة آخرين، نكاد لا نفارقهم حتى بعد أن يدق الجرس.. نتجمهر حولهم خارج قاعة الدرس.

في الحي، يبدو عبد الرحمن عابسًا، لا يكلم أحدًا.. ربما، حرصًا على هيبته. هنا، وجدت تلك الألفة المفقودة في حضرته، وأدهشني انغماسه في الحديث مع الشاب الطنجاوي، الذي قبض عليه وفي حوزته مخدرات، وكانت تلك أول مرة يزور فيها الجديدة. كنا مشدودين إلى لهجته الشمالية المميزة، وأحاديثه التي لا تنتهي، وعبد الرحمن يسأله عن تفاصيل عقود العمل من أجل أخيه الكهربائي.

ليل المخفر المركزي يشبه ليل امرئ القيس، والحزن يدفعني إلى التوغل في عزلتي وصمتي. رجاءً، أيها الراوي العليم بكل شيء، "الراوي الدكتاتور" استلم خيط السرد. ضع نقطة نهاية لهذا المونولوغ الكئيب كهذا المكان.

لو كنت بطلًا في رواية أو فيلم سينمائي لخلعت قميصي وشرعت في الكتابة عليه

وجدتني وحيدًا في الشارع الخالي، أتسلى بتأمل انعكاس ظلي على الإسفلت. تلوح سيارة أجرة من بعيد. أركض في اتجاهها : " ككل إثنين، يغادر الكهول الثلاثة قراهم تحت جنح الظلام، يلتقون عند محطة "الطاكسيات" بأحد أولاد فرج. يستيقظون مبكرًا، حتى يباشرون عملهم في الورش على الساعة السابعة صباحًا". أشير للسائق بيدي، أفتح الباب، أركب دون استشارته، ألقي التحية مشيرًا إلى وجهتي: "محطة القطار". أرنو إلى ساعة هاتفي الجوال. قريبًا من المحطة، شردت نظراتي، وحي النجد يلوح غارقًا في سباته اللذيذ، والعمارات التي انتصبت على ضفتي الشارع حجبت البيوت من الجهتين، أحدق في ساعتي : "أين وصلوا الآن؟ أي جنون هذا.. إنها مجرد قصة. تبًّا لك، يا نور الدين. أنت تلاعبني.. حسنًا، سنرى من سيضحك في الآخر. أتمنى أن تكون ليلتك الأولى في "البيجي" رائعة، وحتى لا نربك القراء، فلا داعي لسبق الأحداث.

تذكر جيدًا، يا صديقي عنوان الرواية: "قيلولة أحد خريفي". نحن ما زلنا في يوم الإثنين، وهذا اليوم صار في خبر كان بالنسبة لك، حين خلدت للنوم، وطلبت مني استلام دفة الحكي. البناؤون في طريقهم إلى الورش. تريد أن تعرف سبب القبض عليك. يبدو أنني تورطت في حبك، وهذا سيجعلني رحيمًا...". تتوقف سيارة الأجرة أمام مبنى المحطة، أواصل مشاهدة شريط سينمائي لا يراه أحد سواي، وأنا أتوجه نحو شباك التذاكر: "يتوقفون أمام "البراكة" الموصدة.. يلوح على وجوههم القلق لغياب "ولد عمي". في مثل هذا الوقت ألفوا أن يكون مستيقظًا يحتسي الشاي ويدخن سيجارته الرخيصة "كازا سبور" casa sport بتلذذ"، سألني الموظف عن وجهتي، وأنا غارق في شرودي البهيج :

-casa port (محطة الدار البيضاء- الميناء).

"يتوجهون إلى الداخل لتغيير ملابسهم.. يلفت انتباههم أن الخدم (المتعلمين)، الذين يسكنون بضواحي المدينة لم يحضروا بعد، لم يتأخروا من قبل، فقد اعتادوا قطع الكيلومترات الستة بدراجاتهم الهوائية المتهالكة كل يوم، وحتى "المعلم التيباري" لم يحضر أيضًا. يقترح أحدهم أن يعملوا لوحدهم، فهم لا يحتاجون إلى خدم، مادامت أشغال النجارة المسلحة لم تنته بعد. يقترح "الفرجي"- أكبرهم سنًّا- أن يعمل رفيقاه فوق السقالة، ويبقى هو تحت ليمدهما بما يحتاجان من ألواح خشبية. يخبرهما أنه سيذهب لتجهيز الشاي، يمزق صمت الصباح الندي بسعاله، وعند باب الكوخ تتعلق الكلبة بساقيه".

أسترخي في إحدى المقصورات، بعض المسافرات يتقنفذن فوق مقاعدهن، أتذكر غابريال غارسيا ماركيز و"الجميلات النائمات". أقاوم ضحكة تكاد تنفلت مني، وأنا أقول لنفسي بصوت مسموع : "صباح الخير سي نور الدين". هذه الجملة لم تكن تحية بريئة، وإنما تشف من قريب "ولد عمي"، الذي يحاول التمرد عليّ. تصرفه الأرعن قد يجعل كل الشخصيات تتمرد على الأقدار الروائية المصنوعة لها سلفًا.

"في المطبخ، تمدد أحد البناءين قرب تجويف إسمنتي مكعب، يشبه حوضًا صغيرًا تلتقي عنده قناتي الصرف الصحي، مد يده في القناة الأمامية متوغلًا أكثر في امتدادها، وحركها في عدة اتجاهات، وبحث في القناة الأخرى. ذهل الرجلان لعدم عثورهما على مطارقهم، ونادى أحدهم على الفرجي بصوت عال: "وا الفرجي، فين(1) البلوطات(2)؟ واش حولتيهم من بلاصتهم(3)؟ باش غادي نخدمو (4)؟". استغربوا أن تسرق المطارق فقط، وكل شيء مرمي هنا، ولا أحد سواهم يعرف أنهم يخبئونها هناك ليلة السبت، لأنهم يعلمون أن عبد الله لا يلازم "البراكة" ليلة السبت ونهار الأحد.. عاتب أحدهم رفيقيه مشيرًا إلى أنهم لو وضعوها في "البراكة" لما تركت الكلبة أحدًا يدخل. رد الثاني بأن اللص يعرف بأن "البلوطات" غالية الثمن، وخفيفة الوزن أيضًا ولم يسرق أي شيء آخر.. لو كان اللص عاديًا لسرق الحديد أو أكياس الإسمنت أو حتى الأعواد والنقالات وباقي المتاع.. قد يسرق كل شيء، مادام لا أحد يوجد هنا. لكن هذا لص خبير بأوراش البناء.

جلسوا عند بوابة الورش كما المعزين، وبعد لحظات، لاحت الشمس تتسلل من خدرها الشرقي تلقي تحية الصباح على الكائنات في استحياء، وبالجوار، كان "بالوما"، حارس الورش المجاور يتمطى بجسده الضخم، ويتثاءب بصوت مقزز..".

أتثاءب، أرنو إلى أشعة الشمس تنعكس على ملامح امرأة تجلس على بعد خطوات بالصف المعاكس. ألفيتني أقارن بين جمالها وبين تلك العانس البنورية، التي ذبل فيها كل شيء. كانت تلح في طلب رقم هاتفي المحمول، بحجة أن تتصل بي. التقينا لقاء غرباء وافترقنا.. فلم تصر أن نلتقي مرة أخرى، مع أن كل شيء حدث بسرعة ويسر؟.. خيل إلي أن ركاب الحافلة - يومئذ- كانوا ينظرون إلي نظرات غير بريئة. ملامحها تشبه تقاسيم نسوة بدويات أراهن في الأسواق الأسبوعية.. بأجسادهن النحيلة، التي شاخت قبل الأوان، تبدو أكبر من سنها.. عيناها وقحتان جدًا، تسيلان شهوة، وفاكهة صدرها تنتصب في شموخ فاجر.

قالت : أعجبتني وأريد أن أتزوجك. قلت لها إنني عاطل عن العمل. ردت بلهجة واثقة: اجلس في البيت وأنا أعمل.. لذت بالصمت، وبعد تفكير، للتخلص منها بطريقة لبقة هتفت: أخشى أن يرانا أحد..

من يتزوج امرأة وهبته جسدها في سرعة قياسية؟ بيد أن ما جعلني أضيق ذرعًا بها حديثها المتحسر عن صديقتها وصاحبها النذل الذي تخلى عنها، ووعيدها بأنها لو كانت مكانها لفعلت كذا وكذا... لذت بالصمت. قلت لنفسي : هو كان يعاملها كبغي.. مثلك تمامًا.

أتأمل المرأة التي تتحاشى نظراتي. بنظرة سريعة متلصصة على ساقها وكتفها أدركت بأنها ليست من ذلك النوع اللحيم المثير، بيد أن وجهها كان فتانًا.. جمالها مشوب بذلك الحزن النبيل.. الآسر. كانت تنشغل بتقليب أوراق قبالتها، وهي تحتمي بالمقعدين الأماميين، فلا أرى منها سوى طرفي جلبابها وسروالها وحذائها. أتساءل : لم حرمتني الحياة من حقي في السعادة؟ نظراتي لا تفارقها، وكلما تململت في جلستها رأيت عينها فقط، من بين المقعدين، حيث تعمدت أن تجلس بينهما حتى لا أرى وجهها كاملًا، ولتتفادى وقاحتي.

بنوع من الوله العذري أحدق فيها.
أحس باختلاجة في صدري..

أنتشل القلم من جيب داخلي.. أدون كلمات، بسرعة، على تذكرة القطار، أختلس نظرة إليها... تلتقي عيوننا. هل تتصورين أنني سأكتب رقم هاتفي مثلا؟ أختلس نظرة وأنشغل بالكتابة. أضع القصاصة في جيبي، أرنو إليها مجددًا.. أمسك هاتفي الجوال، أنقر على زر الرسائل، أختار : "رسالة جديدة". بحروف لاتينية أشرع في تدوين الأفكار، التي ألهمتني إياها فاتنتي الجميلة، وأخزنها على الهاتف. لو كنت بطلًا في رواية أو فيلم سينمائي لخلعت قميصي وشرعت في الكتابة عليه، لأسرق إعجابي

جميلتي، ولكن الحياة ليست رواية جميلة نقضي في صحبتها لحظات، ثم ننساها بسرعة، مثلما اعتدنا نسيان كل شيء. لا مكان للجنون الشهي في الحياة، يا نور الدين.
حين سألتني البنورية عن عملي لم أقل لها إنني كاتب، كان ردي حاسمًا وقاسيًا: "عاطل عن العمل"، فكيف أخلع قميصي لأكتب عليه؟.

انتهيت من التقاط كل حمائم الإلهام المحلقة، والجميلة مصرة على أن تتفادى نظراتي المتعبدة، وفاض قلبي بالحزن حين رأيت خاتمًا في إصبعها.. لا أستطيع أن أميز إن كانت مخطوبة أو متزوجة، كل ما أعرف أنني وجدتني على أهبة البكاء، وغادرت المقعد حين اقترب القطار من المحطة. أتنهد، وفي خيالي أستعيد تفاصيل آخر مشهد كتبته : "يسأل "بالوما" "الفرجي" الذي تبدى مكلومًا: "لمَ لمْ تعملوا اليوم؟ فغمغم الكهل، وهو ينفث دخان سيجارته الرخيصة في حنق : لم يحضر أحد اليوم".

ألقي نظرة أخيرة على جميلة المقصورة. أتعذب بإصرارها على تجاهلي.. حتى نظرة عابرة لا تجود علي بها، وأردد في سري :"صبّ "بالوما" بقايا عشائه في صحن الكلبة، راح يربت على رأسها في حنو بالغ، وهي تلعق المرق بفرح، وهتف : "لقد رأيت ذلك الفتى الغريب، الذي يزور عبد الله أمس... هنا".

الآن، يمكنني أن أتسكع في شوارع البيضاء، في هذا الصباح الدافئ، يا نور الدين. إني أرى أشعة الشمس تتسلل من كوى السرداب، و تصافح وجوهكم. ينادي شرطي على من سيتم ترحيلهم إلى المحكمة الابتدائية للمثول أمام وكيل الملك، فيقفون في صف أمام البوابة الثقيلة، وزوار منتصف الليل، أولئك السكارى، الذين اصطادتهم الدوريات الليلية من أمام الحانات وعلى قارعة الطريق.. يخرجون من الزنزانة المجاورة، وينضمون إليكم، وأحد رجال الشرطة يناول نزلاء سطل ماء وقطعة قماش لتنظيف الدهليز... أرى على ملامحك الاستنكار، يا عزيزي نور.
سأمنحك فرصة السرد بضمير المتكلم صبيحة يوم الأربعاء، أيها الكئيب... الآن يجب أن أعود إلى حادثة سرقة فيللا سيدي بوزيد.. سردنا يحتاج إلى بعض الطرائف. هل تذكر "التيباري" و"بعية"؟ من دون شك، أنت تعرف أنهما من أبطال روايتي البكر "كائنات من غبار"، وأنني جعلت "التيباري" حجر زاوية قصتي "خيط من الدخان"، ومع ذلك لن أغير اسميهما.. سأحس بالوحشة لو فعلتها. ستقول لي لبنى: لقد عدت إلى تمجيد ذاتك في الرواية مرة أخرى؛ بسببها ألغيت فصلين كاملين، وربما لن يعجبها إقحامي للعانس البنورية!

رن هاتفي الجوال، ساورني القلق، لا أحد يتصل بي من الأصدقاء في مثل هذا التوقيت. الرقم غريب : ترى من يكون؟.. وبلا مقدمات، جاءني صوت أحد الأقارب

متحشرجًا، مختنقًا بالدموع.. تضاعف قلقي، لم يترك لي فرصة السؤال، ورماني بقذيفة : "ولد عمي مات".

---

1 : أين هي؟
2 : نوع ممتاز من المطارق يستخدمها البناؤون في النجارة المسلحة.
3 : هل حولتها من مكانها؟
4 : بماذا سنعمل؟

لعن الله من اخترع العطل

نور الدين البارودي :

أتوغل في صمتي الحزين، والصراخ ينبعث من الزنزانة المجاورة. الشرطي المداوم غير مبالٍ، لا يحاول أمرهم بالسكوت. أيقظنا هرجهم، الذي اندلع فجأة بعد منتصف الليل، ورجال الأمن يدفعونهم أمامهم في الدهليز لاعنين آباءهم. رفعنا رؤوسنا نستطلع الأمر. استعاد المشهد سكينته، ولم نبصر سوى الشرطي المتجهم، المسترخي على مكتبه المقابل لنا، وبدأ بعض النزلاء يستمتعون بالسخرية من سكارى نسمعهم ولا نراهم، وهم يتبادلون شتائم بذيئة فيما بينهم. أشد اللحاف فوق رأسي لاعنًا الضجيج ومصباح الردهة. أحاول استعادة ما جرى، لعلي أفهم ما يحدث.. بيد أن ما كان - ومازال- يؤلمني أن أعامل كما لو كنت مجنونًا.

لا أحب الموت...

إنني أكرهه. أكرهه. أكرهه مذ رأيت في طفولتي جدتي - بجسدها الضئيل، الفائض حيوية، مغلفة بكتلة حنان تغمر بها الناس والأشياء من حولها.. ينقلب شيئًا شاحبًا جامدًا باردًا غارقًا في صمته ولامبالاته. لمَ يسرقها مني الموت، ومازلت بحاجة إليها؟ رحيلها أورث قلبي جرحًا لا يندمل، حاولت أن أجد من يعوضني عن حنانها ففشلت.. كنت أحس بأن لا أحد يحبني، حتى والداي..

كل لغات العالم لا تستطيع أن تعبر عن حزني السرمدي. ومرة أخرى، أشعر باليتم. كان "ولد عمي" الوحيد، الذي يحترم صمتي وعبوسي الأزلي (وهل ثمة شيء في حياتنا يستحق أن نبتسم؟). كنت أجد في صدى أحاديثه، التي تكاد لا تنتهي ذلك الطفل الذي كنته، يتوسد فخذ جدته، وهي تغمره بحبها وحكاياها.

حين جاءنا نعيه رأيت عيني أمي تلمعان بغشاوة الدمع. لم أصدق حزنها. إنها تكرهه مثل أمها وخالاتها.. كلهن كن يتمنين لو مات بدل أخيهن الأصغر "امحمد"، الذي لم أره إلا في صور باهتة شابًّا ربعة القوام وسيمًا، ولا أتذكر إن كنت قد رأيته في صباي. مات في ريعان الشباب دون أن يخلف أطفالا يتامى ولا زوجة أرملة.. سألتني أمي إن كنت سأذهب معهم.. لم أرد عليها. غادرت البيت ولم أعرف إلى أين تأخذني قدماي، ثم وجدتني أتكوم أمام "البراكة".

لا أصدق أنه فعلها.. لعلها إحدى خدعه، وحتمًا، سأجده ينتظرني ببراد الشاي، ويستقبلني هاشًّا باشًّا.. في كل مرة، تنطلي نفس الحيلة على إحدى بناته، حين تطلب منها "التيبارية"، التي تبيت في غرفة أخرى مع بناتها أن ترى إن كان قد استقيظ. كان يوهمهن بأنه مازال في الفراش.. يضع حجرًا في حجم رأس على الوسادة، يلف بعض الأغطية على شكل جسد فارع الطول مثله، ويشد اللحاف على شبيهه الوهمي.

قبل أن أغادر، حاولت إطلاق سراح الكلبة وجرّها لكي تودع صاحبها.. لكنها أبت أن تتحرك، غرست مخالبها في الأرض. رافضة أن تتبعني. أعدتها إلى مربطها وغادرت حي النجد.

لثاني مرة أحس باليتم، وأجدني عاجزًا عن ذرف دمعة واحدة...

بالوما :

كالعادة، فوجئنا بالسيارة الفارهة تتوقف بقربنا، وهي تلمع تحت شمس الضحى، دون أن نسمعها... سيارة النائب البرلماني تترك كل من بالحي غارقًا في دهشته، ويتوهمون أنها تتحرك بالهواء أو الكهرباء... فلا هدير محرك ولا دخان عادم يدل على أنها كباقي السيارات. يتوقف العمال عن أشغالهم عند رؤيتها، منصتين إلى أنين حبيبات الحصى تحت عجلاتها، وهي تصدر ما يشبه طقطقة الحطب عند الاحتراق.

رأيت "السي أحمد" يغادر مقعده الخلفي، ويقبل علينا، وهو يصافح البنائين الثلاثة.. واتجهت إلى قبو الفيللا التي أحرسها، حيث مسكني، وحقدي على زوجتي يتفاقم..

جاءتني مساء يوم السبت... حلت بالحي ككارثة، وأخذت كل المال، الذي كنت أدخره عند المقاول، دون أن تترك لي حتى مصروف الأسبوع القادم، وحين اعترض المقاول، ردت عليه بلهجة الواثق من نفسه أن صاحب الدكان سيقرضني حتى نهاية

الأسبوع. غابت شهرًا ونصف، وجاءت لتتركني مفلسًا، لا أستطيع شراء حتى سيجارة.. كان الرجل ينقل نظراته بيننا، لا شك أنه يستغرب كيف يرمي رجل ضخم الجثة فارع الطول عصاه، التي يزرع بها الخوف في من حوله، وهو يمشط المكان، وينقلب إلى فأر مذعور أمام امرأة يمكنه حملها بيد واحدة. استسلم لها، وسلمها كل المال، وهي تشكو من مصاريف الدخول المدرسي ولوازمه، وغلاء المعيشة.. هل أذهب لأتسول أنا وأبنائي؟ كنت شارد اللب، وكأن من تتحدث عنهم غرباء لا يهمونني، كنت أفكر في "زبيدة العرجاء"، لحسن الحظ أنها أجلت لقاءنا حتى ليلة الأحد.

قضيت ليلة مسهدة، أتقلب في فراشي.. لا أحد بجواري يمكنه أن يقرضني أي مبلغ.. لو كان "ولد عمي" هنا لما فكرت في أي شيء، والبقال الجشع الحقير لن يمنحني سوى ما أحتاج إليه من أكل وسجائر. لعن الله من اخترع العطل. اهتديت إلى الحل صباحًا، وأنا أشعل عود "السبسي" (الغليون المغربي). لاح لي طيف الفرجي - بوجهه المتغضن- منتشيًا، وهو "يتكيّف" إلى جانبي، تحت شمس الضحى.. ومن بعيد رأيت رجال ونساء الدواوير المجاورة في طريقهم إلى سوق الحمراء القريب. تذكرت حين ناديت عليه، ذات سبت. كنت أعلم بأنه سيغادر مع صاحبيه، قبل باقي العمال، فالمقاول يمنحهم نصف ساعة، حتى لا يتأخرون في الوصول إلى بيوتهم. بعد انصراف "الباطرون" ناديت عليه، وصديقاه يعدان النقود، جاءني صوته يبلغني بأنه تحت، في المطبخ.. بالقبو. جلس مقرفصًا وهو ينفض التراب عن ركبتيه، وابتلعته غيبوبة "الكيف".

نبحت الكلبة وهي تراني، تجاهلتها، وانبطحت حيث كان "الفرجي" يقرفص قبل شهر، وخامرني سرور بالغ، ويدي تظفر بـ "البلوطات" الثلاث.

المسألة لا تتعلق باحتياجات ومصاريف هذه المرة، وإنما بكرامتي كامرأة

الفرجي :

أحسست بالإهانة، وشعرت بأنهما كانا على حق..
ما كان علي أن أكلم هذا الخنزير "ولد سلّام"، تاجر المواشي الذي لا أدري كيف صار نائبًا برلمانيًا، لكن الأغبياء - أمثالي- من جعلوه سيدًا. على الرغم من سيارته الفارهة وملابسه الأنيقة، فملامحه تفضحه.. وجهه الذي لفحته شموس الأسواق، شاربه الكث وصوته الأجش يفضحون بداوته وخشونته..

ما كان علي أن أكلمه نهائيًا، لكنني طلبت منه مالًا لشراء مطرقة جديدة، على سبيل القرض. فرد علي بأنني أعمل مع المقاول وليس معه. كنت أظنه خدومًا، لكن الصورة، الآن، اتضحت.. في سيدي بوزيد جعل رجال الدرك يتوقفون عن استدعائنا كل يوم للتحقيق معنا، لكن.. ذلك كان من أجل مصلحته فقط، لأن سير العمل كان يتعرقل، وليس حبًّا فينا، كما توهمنا.

رأيته يمسك هاتفه المحمول، وسمعته يحيي "الباطرون"، ويسأله عن سبب توقف العمل بالورش. بعد المكالمة، نظر في ازدراء ناحية الكوخ، وغمغم : "وهل نعطل أشغالنا بسبب هذا الـ...؟ ألا تكفي حديقة الحيوان هذه التي نصبها أمام بيتي؟". نادى علينا- نحن الثلاثة- وطلب منا هدم "البراكة"، والتخلص من الكلبة والدجاج. سارع زميلاي بالتشمير عن سواعدهم، رفضت العمل معهما مشيرًا إلى أنه يمكنه إحضار عمال مياومين من "الموقف". أنا نجار مسلح ولست عتالًا، ثم إنني لم أعد شابًّا، فأنا

على مشارف الستين. تضايقت قليلًا حين علمت بخبر موت عبد الله. كنت أفكر في المصاريف التي تثقل كاهلي. متطلبات الأولاد والبهائم، الأعلاف و"الزريعة" (البذور). إن من في مثل حالتي لا يمكنه أن يرتاح إلا عند الموت، حكم عليه أن يعمل مثل ثور الساقية مدى الحياة. من أين سأدفع أجرة "الحرّاث"؟ هناك من يأخذ عطلة ليحرث أرضه بنفسه، ولا يؤجر فلاحًا مثلما أفعل، لكن مصاريفي كثيرة. لو لم يسافر ابني البكر... لكن، كان يجب أن أتكفل بابنه وزوجته في غيابه. لو كنت أنانيًا، لما تركته يسافر، كنت سأعترض على سفره للعمل في تلك الشركة.

هكذا بدأت.. نصحته بأن يعمل مع الشركات ويتجنب المقاولين، لأنهم "يحرثون علينا الشوك". رحلة الشقاء تتكرر.. كما ترى سيدي، حكم علينا أن نبتعد عن بيوتنا وأولادنا، عمري خمسة وخمسون عامًا ومازلت شبه منفي، بينما هناك من يعرفون من أين تؤكل الكتف، كهذا البرلماني النتن...

لم أنتظر حتى يطردني من الورش لرفضي المشاركة في هدم "البراكة". بكبرياء جريح، اتجهت نحو المطبخ، على أمل أن أجد المطارق في موضع آخر، وحين انحنيت مادًّا يدي في عمق القناة، ذهلت لرؤية تلك الولاعة. عقدت الدهشة لساني...

حملت كيسي البلاستيكي، ووقفت على رأس "بالوما"، اكتفيت بتحية باردة، وأنا أرمقه بنظرات ذات معنى، ربما ظنها صهري نظرات أسى على يوم ضاع هباءً، فراح يمطر بلعناته سارق المطارق.. إنه ينعم بعمل مريح، يكتفي بالحراسة فقط.. فلماذا يسرق؟ وماذا يفعل بماله، فحتى مشقة السفر لا يتحملها، ويرسل معي مصاريف الأولاد إلى أختي؟..

عرض علي كوب شاي، فرفضته، وتمددت على السرير. حين رأيته يشعل سيجارة بولاعة جديدة، لم أسأله عن القديمة. للأسف، لن أستطيع أن أخبر أحدًا بأنه من فعلها.. من أجل أختي وأبنائها.

ووجدتني أتذكر شجاري مع ابني بالأمس، معيرًا إياه بأنه مثل زوج عمته.. عديم الإحساس، كسول، لا يحس بما نكابده من أجل لقمة العيش. كان يمكن أن أطرده من البيت، حتى يتحمل المسؤولية. كنت سأفعلها أمس، وأنا أناول زوجتي المال الخاص بالفلاح الأجير.. فقالت لي: "تتغرب" أنت وابنك، ويبقى البيت بلا رجل... هل نسيت بناتك وزوجة ابنك وأنا؟ على الأقل، هذا العجل ابنك له فائدة، فلا أحد يفكر في الاقتراب منا في غيابك. وراحت تحدثني عن سرقات المواشي، التي انتشرت هذه الأيام.

رغما عني وجدتني أبتسم، وأنا أتذكر كلام ابني مع والدته، وهو يلح عليها لكي تزوجه، مدعيًا أنه ما عاد يحتمل نظرات الجيران إليه.

لم تكن لدي أية رغبة للحديث مع صهري، وسرعان ما وجدتني أغرق في النوم.. لأنني كنت متعبًا. لعلك لاحظت أنني أكرر كلمة معينة كثيرًا، لهذا يلقبونني في القرية : "ولكن"!!.

(توقف الفرجي عن الحديث، ارتسمت على شفتيه ابتسامة مغتصبة، وأشار إلى المحقق طالبًا جرعة ماء، وهو يرمق في انكسار القيد الحديدي، فأشار إلى شرطي ليحرر معصميه، وسأله: حتى الآن لم تخبرنا عن سبب قيامك بقتل المجني عليه موسى السالمي الشهير ببالوما، تبدو رجلا محنكًا، ولن تقتل صهرك من أجل مطرقة...!).

يامنة بنت سعيد :

غرقت في دموعي، وقد تضاعف مصابي. فقدت الزوج والأخ معًا... بسبب هذا الزوج الخسيس جنيت على عائلة بأكملها. لقد كان بمثابة الأب الحنون لي ولجميع إخوته. هو الذي عوضنا عن غياب أبينا. لم أكن أعلم بوجوده مع الخسيس في القبو. عند الأصيل، توقفت سيارة الأجرة أمام الورش، واتجهت كعاصفة نحو مسكنه. اندهش زوجي عند رؤيتي، لأنني كنت - هنا- قبل يومين، وعاتبني أخي على المجيء. من قبل، حين كان يعترض على سفري، كنت أخبره بأنه لا يرسل إلا الفتات ويبذر المال. "المسألة لا تتعلق باحتياجات ومصاريف هذه المرة، وإنما بكرامتي كامرأة"، قلت لأخي.

حين علمت بالخبر، طرت نحو المحطة. لم أتحمل أن أصبر دقيقة واحدة. الكلب ينسب ابن امرأة أخرى- ربما كانت ربيبة شوارع- إلي. صممت على الطلاق أمام أخي. سألني النذل عن السبب، فرميت كناش الحالة المدنية في وجه موسى، وطلبت من ابني أن يقص على خاله ما جرى.

لم يصدق أخي ما سمع، فأمسكه من تلابيبه، دفعه ناحية الجدار، طوق رقبته بيديه، وراح يدق برأسه الحائط في عنف، حتى وقع أرضًا مضرجًا في دمه.

الراوي العليم :

في صبيحة الثلاثاء، مستندًا إلى سيارته رفع "ولد سلّام" عينيه نحو العمال، تهللت أساريره، وقد لاح له "بعية" بقامته التي بدت أكثر قصرًا من فوق البناية، ويرفع يده بالتحية وهو يصيح : "صباح الخير سي احمد".

تصفح جريدته المفضلة، توقف عند صفحة "جهويات"، التهم بعينيه العناوين البارزة، توقف عند اسم مدينة الجديدة، واسترعى اهتمامه عنوان الخبر : "نسخة من عقد الازدياد تودي بحياة حارس ليلي" :
"لم يكن يعلم (م. س) أن نسخة من عقد الازدياد، التي طلبتها منه إدارة المدرسة ستجعله يكتشف أخًا مجهولًا، وموظف الحالة المدنية يتوقف عند صفحة أول المواليد. اندهش الابن، لم يصدق أن عمه، الذي يكبره بسنتين شقيقه.
هذا الأخ مجهول الأم، الذي كفلته الجدة، وكان الجميع يعامله كأخ للضحية وليس ابنًا...".

ارتسم الضجر على ملامح "السي أحمد"، توقف عن القراءة، رمى الجريدة في ازدراء فصيح على الأرض، ألقى نظرة أخيرة على الورش، استقل السيارة، ومن المذياع جاءه صوت أنثوي رخيم : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث..."، التفت يسارًا، حيث كانت تنتصب "براكة" عبد الله التي لم يعد لها أي أثر، اعتدل في جلسته، وطلب من السائق أن يطفئ المذياع بنبرة بدوية: "آطفي هذاك المشقوف"، وأشار إليه بيده أن ينطلق.. ومن فوق، تابع البناؤون سيارة "ولد سلّام" وهي تنهب الطريق.

أتشرد في الزمان والمكان لعلي أصادف شخوص الرواية
على قارعة طريق أو رصيف مقهى شعبي

في المقصورة، وجدتني أدشن الكراسة الجديدة بخربشات كالأطفال. كنت مهمومًا بالرواية بشكل لا يطاق، بشخصياتها التي تنمو وتتعملق بداخلي، وتتصارع لكي تدافع عن حقها في الوجود... أبدو شبه غائب عن الوعي، ألعن ضجة هذا القطار- الخردة، التي تجعلني غير قادر على أن أركز في القراءة والكتابة. أفكر في طقوس الكتابة، وأستغرب كيف يستطيع بعض المبدعين أن يكتبوا في المقهى وسط دخان الرواد وصخبهم.. أرسم أشكالا هندسية هلامية، أدوّن عبارات بلا معنى. أحس أن هناك من يختلس النظر إلي معتقدًا أنني معتوه.. كالفتاة الجالسة قبالتي، بملامح شبه بلهاء، وأمها العجوز تتحدث إلى الشاب المجاور لي.

أسارع بتمزيق الورقة، وعلى صفحة جديدة أخط أسماء شخوص الرواية، وكمن يحل معادلات رياضية.. أرسم خطاطة للأحداث باحثًا عن رابط خفي بين ما حدث وما سيحدث. أحس بأنني أمقت "ولد سلام"، الذي أفسد علي متعتي بالكتابة مدركًا بأن هذا الفصل قد يكون أسوأ ما في الرواية، وعلي أن أتفادى أي تنميط ساذج. أتذكر من ألهمتني هذه الرواية. لقد اختفت بعد أن أينعت براعم محكياتها.. لعلها على وشك أن تصبح أمًّا، في حين مازالت أكابد مخاض هذه " القيلولة".

بكاميرا هاتفي الجوال، التقطت مقطع فيديو قصير لقطة الجيران وصغيرتها، اللتين كان يحلو لي أن ألاعبهما قليلًا. أرسلت الملف إلى لبنى معنونًا الرسالة بـ"أمّ بق وابنتها". حتى الآن، لم أصارحها بأنني - ذات أحد- كنت أتأملهما، وهما تستمتعان بلعبهما، ثم بقيلولتهما، وتنام الصغيرة في حضن أمها، تحت دفء شمس خريفية. تلك القيلولة كانت شرارة الرواية، فألهمتني مشهد قيلولة نور الدين.

أغلق الكراسة، أنشغل بالتحديق في من حولي، وأرى العجوز- بمظهرها المثير للرثاء- تتحدث إلى جاري، عيناها الشائختان ملتهبتان. ألفيتني ألتقط بكاميرا وهمية لقطة مكبرة تقتنص تعابير وجهها الحزين، وهي تغتال مشروع دموع على وشك الانهمار، كسيل جارف.. مشيرة بيدها المعروقة إلى ابنتها : "أعيش من أجل هذه فقط". أتساءل : لم لا تترك دموعها تنساب؟ أهو الخجل أم أنها تخشى أن تتهم بأنها تستجدي عطف الآخرين؟..

****

وصلت ظهرًا إلى مدينتي، وداهمني رعب مفاجئ من ركوب سيارات الأجرة، التي تربط المدينة بإقليمها، فسائقو تلك "الطاكسيات" مشهورون بسياقتهم الجنونية، وعليك أن تتلو الشهادتين قبل أن تفتح الباب. فكرت في الحافلة.. سأستقلها وليس مهمًّا إن تأخرت.. لا سيما وأن عبد الله دفن بالأمس، ولم أعلم بذلك سوى هذا الصباح، بسبب هذه الرواية اللعينة.

كنت على سفر، وهاتفي الجوال خارج التغطية.

فضلت أن أكون وحيدًا بالمكان الذي أزوره لأول مرة، ولا أريد أن يشدني أي شيء إلى الخلف.. كالعادة، أتشرد في الزمان والمكان لعلي أصادف شخوص الرواية على قارعة طريق أو رصيف مقهى شعبي. وجدتني أهمس لنفسي بتلك العبارة المصرية الشهيرة : "حاميها حراميها"، وأنا أرى رجال الدرك - بصحبة قائدهم- بالسوق الأسبوعي يتجولون بسيارتهم، ويقبضون الإتاوات من "الخطافة".. ممن ينقلون البضائع والناس بلا رخصة، على رغم وجود "الطاكسيات".

لا أدري لم اليوم فقط انتابني الذعر من سيارات المرسيدس البيضاء تلك. اليوم فقط، أتذكر أنها كانت السبب في موت "امحمد"، الذي ترك في قلب "أمي عايشة" جرحًا لا يندمل.. حتى الآن، لم تصدق أنه مات، وكلما طال غياب عبد الله تسألهم في لهفة: "ألم يجيء امحمد بعد؟".

في الحافلة، رحت أدوّن تفاصيل عجوز المقصورة بخط رديء.. كعادتي، كلما كتبت بسرعة، على إيقاع سنابك خيول تركض في حقول ذاكرتي، خشية نسيان أي شيء، فلا أدري كم سيطول بي المقام هنا.. في القرية.

كانت تتحدث بلوعة عن ابنها الذي لا تعرف رقم هاتف بيته، ويطلب من سكرتيرته أن تكذب عليها، وتنفي وجوده بالمكتب. أدركت أنه تغير منذ أن خلعته زوجته. لم يعد

كما كان، بعدما علم أن طليقته أنجبت. صار يغار حتى من أخيه المهندس المغترب بألمانيا، ولم تخفت هذه الغيرة إلا عندما علم بإصابته بالسرطان. إنه مثل أبيه تمامًا...

كانت ملامحها تعكس ذلك الطوفان الداخلي الهادر : توقف عن إرسال المبلغ، الذي اعتدت أن أعيش به أنا وهذه المسكينة. (انتبهت إلى أن ابنتها معاقة ذهنيًا)، لا أدري من سيرعاها بعد موتي. والدها طلقني بمجرد ولادتها... (أختلس النظر إليها؛ مظهرها لم يكن يوحي بأنها في منتصف العقد الثالث، وانتبهت إلى أن حركتها بطيئة وأطرافها مرتخية أثناء سيرها، وهي تسأل عن دورة المياه).

أخبرت جليسها أنها جاءت إلى الدار البيضاء طارقة باب إحدى الجمعيات الخيرية، التي ترعى ذوي الاحتياجات الخاصة، وهي - الآن- في طريقها إلى ابن عمها المحامي الشاب لتبلغه بموافقتها على عرضه السابق بشراء أرض متنازع عليها بسيدي بنور : وحده المحامي من سيستطيع شراء نصيبي من الورثة، ووعدني بأن يبني لي بيتًا.. هناك. لقد جعلني ابني أغادر القرية بدعوى أنه سيستأجر لنا بيتًا بالمدينة، حتى نصير قريبتين منه.. لكن، يبدو أن كل ذلك كان للحفاظ على مظهره الاجتماعي، فقد صارحني في مكالمة هاتفية بأنه لا يريد أن يعرفني زملاؤه في البرلمان أو أصدقاؤه.. حتى لا أهدم كل ما بنى، ولا يريدهم أن يعرفوا أن أخته معوقة.

بسبب النساء، خسر والده كل أرضه، وباعها لابن عمه.. لهذا يحقد ابني على أبناء عمه، كأنهم السبب في ضياع حقه. لقد استولى على أرضي، بتفويض مني لبيعها، ولم يعطني أي شيء.. ترك تجارة المواشي، واتجه إلى المقاولات...

طلب منها جاري أن تتراجع عن فكرة الاتصال بالمسؤولين بالرباط، لأن ابنها قد يتعرض للأذى.. أكدت أنها تريد أن تقرص أذنه فقط، وعرض عليها الفتى أن يساعدها، عن طريق أب زميلة دراسة، وهو موظف سام بالعاصمة. تهلل وجه العجوز بشرًا، وسألته بلهفة متى سيتصل به.. رد بأنه لا يعرف إن كان الآن بالرباط أم بسيدي بوزيد. طلبت منه ألا يخبره باسمه حتى يتأكد بأنه لن يؤذيه، سألها عن اسم ابنها.. فردت : أحمد بريطل، وهو مشهور هنا في دكالة بـ"ولد سلّام".

ليس ذنبي أنني حاولت، مثل غيري، أن أبحث عن فرصة عيش كريم خارج حدود هذا السجن الكبير

حدثني "ولد عمي" قال..
مهلا! هذه عبارة أكل عليها الدهر وشرب.. لا تنفع في زمن يتواصل فيه الناس بالـ(SMS) والبريد الإلكتروني.
إذاً، فلندع الحذلقات السردية جانبًا..

عشية أحد بوزيدي، رأيت "ولد عمي" ينزل القط الصغير من فوق سور حديقة الجيران، حيث اعتاد تسلق شجرة الرصيف الخلفي، ثم القفز فوق سور الفيللا. وفي الأسفل، كانت الأم تراقب صغيرها العالق دون أن تستطيع نجدته، لأنها لم تعد قادرة على حمله بين أسنانها، ومن عليائه يرنو إلى الأرض مرعوبًا، فيتراجع الى الخلف، وهو يموء مواءً منكسرًا. وبترقبها الصامت العاجز بدت له القطة الأم كأنما تعاتب نفسها لأنها عودته على أن يقضي سحابة يومه بين الشجرة والسور.. لاتقاء شر كلاب الحراسة البوليسية وشراستها. لم تكن تعلم أن بستانيًا سيشذب الشجرة نكاية فيهما، مما يجعل القفز باتجاهها مخاطرة لا تحمد عقباها، ورأيت "ولد عمي" يعتذر للسيدة عن الإزعاج، الذي سببه القط الصغير طوال الليل، لأنه لم يبت هنا.. وتعمد الضغط على مخارج الحروف عند النطق بكلمة هنا، وهو يلتهم بنظراته سيقان الأرملة الوحيدة، ووجدتني أتساءل : "من أين لك كل هذا الخبث، أيها العجوز؟!". ولاح لي القط الصغير يتقافز في سرور طفولي حول أمه.

ترفع عيناك إلى السماء، تحدق في الشمس... ودفئها الذي اشتقت إليه. انتابك فرح طاغ، وأنت تجتاز عتبة المبنى المتجهم. رأيت والدك وبعض أقاربك في انتظارك. صافحك أبوك ببرود، دون أن يتفوه بأية كلمة.. لم تستطع أن تعبر عن مشاعرك، كهذا

القط المبتهج باستعادة حريته. لم تتعود على أن تعبر عن مشاعرك، وإنما على الكتمان... أحببت في صمت وتعذبت في صمت أيضًا، حتى حينما فشلت في نشر محاولاتك القصصية على حبال بعض الصحف الوطنية... كتمت حزنك، وأنت ترى مدينتك الطوباوية تنهار. وجدت نفسك تصوم عن الكلام، وتزهد في معاشرة الناس، وفي عينيك بكاء مزمن.. بكاء بلا دموع.. تتعجب لمن تعتبرهم حيوانات ناطقة.. غير مبالين بضياعهم، لا يعبأون لفشلهم الدراسي.. تجدهم متناثرين على عتبات البيوت وعلى نواصي الدروب.. يقهقهون، يدخنون، يتباهون بهواتفهم المحمولة الفاخرة، وهم في كامل أناقتهم دائمًا. في حين لا تعبأ حتى بتسريح شعرك أو حلق شوك لحيتك.. وتلمح في نظراتهم دومًا ما يشبه الاتهام بالجنون.

- لم يبال به أحد... قالها بحسرة.
- إنه مجرد قط. في هذا الوطن لا أحد يبالي بالآخرين، وحين يتحدث المثقفون والإعلاميون والساسة عن معاناة البسطاء... فللمتاجرة فيها فقط !!.

أدهشتك الحياة السرية للنخبة، لمن كنت تعتبرهم أنبياء جددًا، تيقنت أن الواقع أغرب من الخيال دائمًا. حاولت أن تتبع درب الكتابة السينمائية، فاكتشفت أنه عالم أكثر تفسخًا من الوسط الأدبي. اتصلت بأحد المخرجين، فاقترح عليك أن تتصل بإحدى شركات الإنتاج. إن الأمر مرتبط بالمنتج إذًا، وهذا المنتج لا يهمه سوى الربح..
هل يمكن أن تصلح هذه التجربة (الإنسانية) بذرة سيناريو جيد؟

ليس في حياتك ما يستحق الكتابة، ولن يهم أحدا أن تكتب أن سبب انطوائيتك حظر التجول، الذي مورس عليك من طرف أبيك في طفولتك. ربما كان محقًا.. حبه وخوفه دفعاه إلى حمايتك من العالم الخارجي.. تفكر في أن تكتب تفاصيل هذه التجربة تحت عنوان: " 48".
ستكتب عن يومين قضيتهما خلف القضبان.

في ما يشبه الشفقة، قال أحدهم إن الكتابة للسينما ليست بهذه البساطة، يجب أن تكون ملمًّا بالكثير من المعارف والعلوم : علم النفس، علم الاجتماع، التاريخ، الفلسفة...
كنت من بين المدعويين لمهرجان سينمائي بمدينة هامشية للكتابة عنه. في جلسة بفندق المدينة الوحيد، والذي لا يرتاده سوى سياح من الدرجة العاشرة.. الزمان : ما بعد منتصف الليل، وبين دخان سجائرهم ونبيذهم ناقشوا الأعمال الكوميدية ودور التلفزيون المغربي في تبليد الأذواق والمشاعر، كان هناك من يرى أن هذه الأعمال هي التي يريدها عامة الناس، حتى لو لم تعانق همومهم.. وتحدث أحدهم عن نذالة نجم كوميدي، ممزقًا تلك الصورة، التي يحاول رسمها لنفسه أمام المشاهدين..

إلى جانبك جلست متربعة على الأرض ممثلة مبتدئة، غير عابئة بعري فخذيها وذراعيها تدخن الحشيش. كانت الوحيدة بين كل هؤلاء الرجال المهتمين بالفن السابع. بيد أن أحدهم بدا منزعجًا لأنهم يغازلون زوجته الممثلة الشابة أمامه، ثم اكتشفت أنه مخمور، ولا علاقة لها به... لعبة سخيفة سمجة مثله، وسرعان ما خرج عن النص، وأطلق العنان لمكبوتاته.. راح يفصح عن كراهيته لمدير المهرجان، ويتهمه بأنه يسرق الأضواء، حين ينسب مجهودات باقي أعضاء الجمعية لنفسه، وبدأ ضيوف المهرجان يحاولون تهدئة الرجلين.

تذكرت حين اتصلت هاتفيًا بمحرر الملحق الثقافي للجريدة، فجاءك صوته مشوشًا وسط فوضى الحانة وقرقعات الكؤوس، وأنت تتصل به لتعاتبه على إهمال موادك، وأنت الكاتب المتعاون مع الصحيفة، التي ستنشر بها لاحقًا تغطية صغيرة عن المهرجان. استحضرت اقتراح صديقك بأن تولم جمركي الملحق الثقافي.. ابتغاء مرضاته، وطبعًا، يجب أن تتضمن الوليمة زجاجة ويسكي، وكم اندهشت حين علمت أن كاتبًا يغازل المهمشين والمسحوقين في قصصه، كان ينشر للكتاب الشباب في الملحق الثقافي للجريدة اليسارية نظير زجاجة ويسكي.

بعد سؤالك عن البيانات، والنظر في أوراق الملف طلب منك وكيل الملك التوقيع، دون أن يتفوه بأية كلمة، فشدك عون سلطة - هذا الدور، عادة، يؤديه الكومبارس- من كتفك وخارج مكتبه، رأيت أحد رفاق المحبس يصرخ محتجًا على عقوبة الحكم بالحبس والغرامة المالية: "تبيعون الخمر وتقبضون علينا"، وألفيت نفسك تفكر في مصير الكهلين، اللذين قبض عليهما مع عاهرتين.

جاءا من البيضاء. أحدهما راح يحدثك متحسرًا عن غباء تلاميذ هذه الأيام وجهلهم.. ملقيًا بكل اللوم على المناهج التعليمية. صديقه يصغي بصمت. مظهره وملبسه يشي بأميته، ونقاش كهذا لا يهمه، وعند الحديث عن كراهيته للنساء. علق الصديق باسمًا: " لهذا صرت تمشي لوحدك وفي لهفة، ونحن في الحديقة العمومية، دون أن تخشى أن تصطدم بأي شيء أو تقع... من أجل (...)، وهأنت ترى النتيجة، يا أستاذ".

ضج المكان بالضحك، ابتسم الأعمى، وبغيظ مكتوم تحدث عن طليقته، التي طردته من البيت : كانت زميلة مدرسة، حتى أهلها ساندوها ولم يعارضوها. والوزارة تخلت عني بعد أن أصبت بالعمى بسبب داء السكري. كانت تقول لي : "هذا ابن خالتي وهذا ابن عمتي"، كلما سألتها عمّن يأتون معها للبيت. (تتألم.. غير مصدق أن مربية أجيال تمارس أقدم مهنة في التاريخ). كان يجب ألا أعترض، لكنني لم أتحمل، وكانت النتيجة... التشرد. (بدا الوجوم على رفاق المحبس). هذا السيد (يشير بإصبعه إلى صديقه) من يرعاني مع أنه لا يعرفني.

وتحدث الصديق عن مشاكله مع زوجته البيضاوية، التي ترفض العيش معه بالبادية، وتحسر على زوجته الراحلة : أفكر في الزواج من أخرى، وهجر هذه المرأة. إنها ترفض بيع البيت، الذي يتهمني إخوتها بأنني أحرضها على السطو عليه. لو بيع البيت ستضطر أن تذهب معي إلى البادية، لكنها ترفض.. أفكر في أن أطلقها والعودة إلى القرية. البيت خال، لا أحد فيه سوى زوجة ابني، وهو غير موجود، وقد تسرق الماشية.

سأله أحد النزلاء : كيف تتركها وتذهب...؟ (خمنت أن سؤاله خبيث، فهو يسأله بطريقة دبلوماسية : ألا تخشى أن تخونك زوجتك الشابة أثناء وجودك بالقرية؟) وبلهجة الواثق من نفسه رد : لو بقيت أسبوعًا في الشارع فلن يكلمها أحد، لأنها دميمة...

بصوت واحد سُئل الأعمى عن التي قضى معها ليلته إن كانت جميلة، فابتسم صديقه، وروى الرجل نكتة زوجة الكفيف، التي كانت تتباهى بجمالها، الذي لا يراه، بعيونها، ابتسامتها، شعرها... فرد عليها الزوج : أعرف أنك بشعة، لو كنت كما تقولين، لاختطفك المبصرون.

خارج مبنى المحكمة الابتدائية، الذي بدا لك متجهمًا، تناثرت جماعات هنا وهناك، تترقب في لهفة ما بعد التوقيع. وجدت نفسك تفكر في عطر السيد الوكيل النفاذ، ووجهه الناعم الحليق، وأعشاش العناكب وطبقة الأتربة، التي تتناثر في حجرة الانتظار، الأشبه بمخزن مهجور لسقط المتاع. هذا المكان لم نعتد مشاهدته على الشاشة، هتفت لنفسك. يا لهؤلاء المخادعين، إنهم يكتبون عن أشياء لا يعرفونها !!.

في نظرات أبيك لوم صامت، أخرجك من دوامة السكون، التي غرقت فيها منذ شهور : "لا تلمني على شيء لم أفعله، ليس ذنبي أن الدنيا تعاندني...". عاتبك الأقارب، تركتهم، وذبت في الزحام البشري مهزومًا، وتواسي نفسك : "ليس ذنبي أنني حاولت، مثل غيري، أن أبحث عن فرصة عيش كريم خارج حدود هذا السجن الكبير".

كان صاحب شركة، كما عرفت من "ولد عمي"، وكان يسكن بجوار ورش البناء بسيدي بوزيد، حيث كنت أتردد على "ولد عمي". فاتحت أبي، ومن أجل عقد عمل بالخارج اضطرت أمي أن تبيع حليها، ونصيبها من ميراثها. لكن الرجل اختفى فجأة، وتبخرت كل الأحلام الوردية.. وجد أبي نفسه مرغمًا على اللجوء إلى قريبنا البرلماني، على الرغم من عدم حبه له.. فأخبره أن الفيللا المجاورة له كانت مؤجرة، وباسم وهمي، ولا أحد يعرف اسمه الحقيقي، وحتى هاتفه المحمول لم يعد يرد...

في المحبس، رسم العديد من النزلاء سيناريوهات افتراضية للانتقام من أمثال هذا المحتال. أحدهم حدثنا عن قريب له بالبيضاء : "وحدها المصادفة جعلته يكتشف اسم وعنوان من خدعه بدليل الهاتف، فاتصل به هاتفيًا، وعلم من زوجته أنه ليس بالبيت، لم يخبرها من يكون، وراح ينتظره قرب البيت، المدون عنوانه بدليل الهاتف. رآه قادمًا مع المصلين، بعد صلاة الجمعة. تفاجأ الرجل عند رؤيته. طلب ماله في الحال، هدده بأن يفضحه، ويتصل بالشرطة. منحه ثلث المبلغ، ووعده بأن يتدبر باقي المبلغ لاحقًا.

لم يفكر - من قبل- أن يتصرف في "الشيكات"، التي أعطاها له النصاب، كان لديه الأمل بأنه سيلتقيه مرة أخرى. هدده بدفع الشيكات التي بدون رصيد، مصرًّا على طلب المبلغ كاملًا، فأقسم له بأنه سيتدبر المبلغ بأسرع وقت، لكن الرجل اختفي مجددًا، ثم فوجئ به يتصل به مرة أخرى.. أخبره بأن عقد العمل حقيقي وليس مزورًا، وتفاوضا على المبلغ. أكد له المحتال أنه يريد خدمته، وأنه يعتذر عن الحادث الأول. حدد المبلغ، وطلب القريب شيكات واتفقا على اللقاء.

اتصل به النصاب هاتفيًا، وأخبره أنه في مأتم بالرباط، وحدد له مواصفات مندوبه حتى يتعرف عليه، وسأله القريب إن كان واثقًا منه، واشترط ألا يفتح المندوب الظرف أبدًا. التقيا، سلمه هذا الأخير الشيكات، وألح عليه ألا يفتح الظرف. بعد دقائق، وقبل أن يغادر المكان، أيقن أنه كان ينتظر في مكان قريب، ولم يكن مسافرًا، حيث فوجئ باتصال هاتفي.. ويبلغه أنه ليس بالظرف سوى الورق.
داخل الظرف ثمة دفتر في حجم جواز السفر، ورزمة ورق أبيض مقصوص بعناية.
يمكنكم أن تتصوروا قلقه على الشيكات وليس الأوراق..

طلب قريبي من المندوب أن يساعده، ووعده بألا يؤذيه، وعلم منه أنه سبق أن نفذ عمليات مشابهة كثيرة. كان يضعه في المشهد، ويبقى هو بعيدًا. أخبرت قريبي بأمر الأوراق، فقال لي : "هل رأيت بعينيك شيئا؟"، أجبت بالنفي، وطلب مني أن أبقى بعيدًا.. وإلا جعلني شريكًا له. للأسف، كنت أنا من عرفه عليه، ولم أكن أظن أنه محتال..
أفحمني قريبي بقوله أن الرجل تسلم الظرف مغلقًا، ولم يرني أضع الأوراق، ولكي يستعيد الشيكات خضع لابتزازه، لكن قريبي بعد أخذ كل ماله دفع الشيكات، وحكم على المحتال بالسجن".

تذوب وسط الزحام، تهمس لنفسك : " لقد انتهى دورك، يا نور الدين في الرواية، ويتحتم عليك أن تقدم على خطوتك الأخيرة.. أملك الأخير. لكي تتحرر من سطوة هذا

الكاتب. استقل بوجودك، بعيدًا عن لعبة المصائر المعلقة في هذه الرواية. ولا تنسَ أن تؤكد لقارئك المفترض أنها مجرد رواية، كغيرها من الروايات، التي تكتب في شهور، تقرأ في ساعات، وتنسى في دقائق".

نخلة الضريح وحدها تكفي لكي تحرك هواء الحزن الراكد في أعماقي

في بيته، وجدتني أتأمل "التيباري"، وهو يضع صينية الشاي أرضًا، على الحصير.. طالبًا من "بْعَيّـة" إبعاد الخوان لعدم حاجتنا إليها. يتمدد على البساط، وتحت إبطه وسادتين. تخيلت البساط المطوي رصيف شارع، والحصير إسفلته، تبدت الحجرة بسيطة بمفروشاتها، تمنح بهدوئها المحبب العين والقلب ألفة وراحة مفتقدتين، وخيل إلي أن جلبابه الصوفي الخشن أضفى عليه وقارًا لا يتناسب وصورته المنطبعة في ذاكرتي : الكهل الضاحك دومًا. أتأمل كهولته المتعبة، وجهه الممصوص، الذي لفحته شمس أوراش البناء، ويأسرني ذلك البريق الغريب في عينيه الباسمتين على الرغم من كل شيء. أتربع في جلستي، محتسيًا الشاي الدافئ، وفي الخارج، تعوي الريح كذئب جريح. أتمتم : "كم هي موحشة ليالي الخريف في القرية !".

التفتنا ناحية "بعية"، الذي بدأ شخيره يعلو. ولأننا عدنا من المأتم في وقت متأخر، ضاعت طرقات "بعية" على بابهم سدى، فعلق "التيباري" باسمًا : " لو جاء اللصوص، وسرقوا كل شيء، فلن تستيقظوا...". رفع ابن أخيه يده المفلطحة، والتي يتنافر حجمها وقامته القصيرة، حرك اليد في الهواء في زهو، متوعدًا كل من تسول له نفسه أن يقترب من بيتهم: "هَانْتَ لْأمُكْ اليِدْ قِداشْ.... قول لشي واحد يْحُكْ عْلينا".

أغرق في ارتباكي، وأعتذر لـ "التيباري" عن الإزعاج الذي سببته لهم، فاضطر أن يوقظ زوجته لتعد لنا الشاي.

فكرت في أن أعتذر في البداية، حتى لا يضطر - بسببي- أن يقود دراجته الهوائية، نمشي راجلين ونقطع مسافة طويلة، فأشار إلى أنه أحضر معه دراجة ابنه النارية. وجدتني ألبي دعوته، حتى أبتعد عن الجو الجنائزي الكئيب في دوار أقاربنا، والذي أنفر منه منذ طفولتي. كنت أفضل قضاء العطل المدرسية في قرية جدي.

حين وطأت قدماي البلدة، بعد نزولي من الحافلة، استغربت أن يدوم نفوري من المكان حتى هذه اللحظة، وأنا ألمح تلك النخلة اليتيمة عند خاصرة الربوة، المجاورة لقبة بيضاء تساقط طلاؤها. وجدتني ألتفت ناحية الصومعة، حيث عش اللقلاق :" يا للكآبة! منذ عشرين عامًا، رأيت هذا الطائر بعشه الكئيب. الحمد لله أنني لم أعاين دفن عبد الله، إن نخلة الضريح وحدها تكفي لكي تتكوم كل أحزان البشرية في قلبي. هذه الروابي الكريهة ليست هي تلك الحقول الممتدة بلا حدود... هناك، حيث نسيت قلبي. ألا يكفي حزن الخريف؟".

على ضوء الدراجة النارية الشاحب، لمحت البوابة الخشبية العتيقة التي بلا لون، و"التيباري" ينهر كلبه لكي يفسح لنا الطريق، ويكف عن النباح. تعطلت لغة الكلام، انداحت ذكريات مسقط الرأس والقلب، وانهمرت دموعي الباطنية.

كأنني أرى تلك البوابة بالأمس فقط. أرقبها مأخوذًا وبجوارها البغل المربوط إلى قطعة حديد معقوفة في الجدار، قريبًا من البوابة، ويبدو لي البغل - وأنا الطفل الطاعن في براءته- سعيدًا بوجبة العلف من خلال حركات ذيله منتظمة الإيقاع، غير عابئ بمشقة الطريق الطويلة التي تنتظره، فأشفق عليه من خداع جدي...

باب الحجرة مغلق، ولم أتمكن من الانتباه إلى السماء.. وفي المأتم وفي الطريق إلى بيت "التيباري" لم أرفع بصري إليها، فقد تكومت خلفه بسبب لسعات البرد. خالجني ما يشبه الفرح، وينابيع ذكريات الطفولة تتدفق.. ألفيتني أرقب النجوم في الليل مشدوهًا، ونحن نيام فوق سطح البيت - صيفًا- مع خالي الأصغر، وبقية أخوالي العزاب.. منهم من يفضل النوم في البيدر فوق التبن أو فوق العربة الرابضة بجوار شجرة التين. كنت أستغرب : "لم لا يوجد هذا العدد الهائل من النجوم في سماء المدينة؟".

- قالوا لها : إنهم يقومون بدهن البيت من أجل زواج حفيدها.

"معهم حق..." تمتمت واجمًا، وعاتبت "التيباري" في سري : "سامحك الله"، ومشهد "أمي عايشة" في طريقها إلى بيتها.. ينتشلني من سحر الطفولة وعذوبتها، ويكدر صفو اللحظة الحالمة. رأيتها محمولة بين حفيدتيها من بيت ابنتها، بجسدها الثمانيني الواهن، الذي أنهكته السنون وتكالبت عليه العلل، وبعينيها المنطفئتين.. أشفقت على من يعيش حتى هذه السن، وخيل إلي أن كل حفيداتها تمنين موتها، بدل ابنها حتى يرتحن من حيزبون مقعدة، تنسى أسماء أحفادها وحفيداتها.. كل من في القرية يعلم أنهم أخفوا عنها خبر موت ابنها.

سمعت "التيباري" يكرر أمام المعزين معارضة المقاول لسفره في تلك الليلة المشؤومة - بتعبيره-، كأنما يقول لهم : لو أنه لم يفعلها لبقي حيًّا يرزق. ارتشف آخر رشفة بصوت مسموع من شايه، وحدثني عن تسلل "ولد عمي" بعد مغادرة الجميع، كما اعتاد أن يفعل، كلما قرر الذهاب إلى بيته ليلة السبت. كان رب العمل يتغاضى عن غيابه عن الورشة يوم الأحد نهارًا.. ضحك "التيباري" ضحكًا كالبكاء، واستطرد: "كان يخبرني عن الحيل، التي يلجأ إليها ليختلي بزوجته. البنت الكبرى تذهب عند عمتها بمجرد حضوره، وتأخذ معها الأخت الصغرى، كلما رأت أباها. ربما أمها من أوصتها بذلك... ويتكفل - هو- بالآخرين. يرسل كل واحد منهم إلى مكان مختلف.. المهم البنت الصغرى "سمية".
لقد دخلت عليهما الحجرة، بعد أن نسيا إحكام إغلاق الباب، وضبطته فوقها، فراحت تصرخ : "دع أمي، لا تقتلها..". آه..! ما زلت أتذكر ضحكته يومها".

كنت أعرف - كغيري- أن علاقتهما أشبه بعلاقة القط والفأر، وأحيانًا، يكون سبب خصامهما مضحكًا. "التيباري" لا يحب أن يطلب منه أحد - ولو نصف درهم صباح يوم الإثنين، بعد أن ترك مبلغًا محترمًا في سوق الحمراء بالأمس، وبسبب حظه العاثر، يكون "التيباري" أول القادمين إلى الورش، وعند البوابة، وهو يترجل من فوق دراجته المتهالكة، يصطدم بعلبتي الشاي والسكر فارغتين مدعوكتين. فيشتكي بصوت خفيض إلى "الفرجي" : "شوف القوالب (الحيل) ديال عبد الله"، فيعلق باسمًا : "راه فميلتك (1).. ما عندك ما تدير ليه"(2).

استحضر "التيباري" يوم غضب "ولد عمي"، ورمى الطنجرة بكل محتوياتها. كان قد أخفاها وسط برميل قديم، غير مبال برائحتها الشهية، التي غمرت المكان. طلب منه المقاول أن يعمل مع "التيباري" في "الفينيسيون" (الأشغال النهائية)، والتي لا تتطلب بذل أي مجهود، وحين نهره المقاول: "راك ما خدامش آعبدالله، مقابل غير الكَميلة..". لم ينبس بكلمة، اتجه ناحية البرميل، رفعه بهدوء، أمسك بالطنجرة، رفعها من فوق (البوتاغاز)، وطوح بها.. بكل قوته.

أغرقنا في الضحك، غير مهتمين بالنيام، وراح يحدثني عن فقيه الدوار، الذي ألح عليه زملاؤه، وهم يتوضأون ليصلوا العصر، أخذ يرنو إليهم واجمًا، يداري حرجه بالصمت، وهو واقف إلى جانب الأهالي، الذين ارتبكوا.. هناك من يطلب صندلًا بلاستيكيًا للفقيه، وآخر يستعجل إناءً، بعد أن انقض الفقهاء الأغراب على كل الأواني المرصوصة أمام المرحاض، فأنقذه زميل من الإحراج.

ابتسم "التيباري" ابتسامة خبيثة، كنت سأسأله: "هل كان يتلو معهم القرآن، وهو غير متطهر..؟"، فأحجمت عن السؤال. بدا لي سخيفًا للغاية، وذكّر حادث الفقيه

"التيباري" بذلك الكهل الملتحي، الذي رأوه في سيدي بوزيد. كان يستقل سيارة "كات كات"، وإلى جانبه فتاة لم تتجاوز ربيعها الثامن عشر : "كانت الفيللا التي نعمل فيها متاخمة للشاطئ، لا يفصلها عنه سوى الشارع، وصفّ من الفيللات تربض على الرمال، وقبالتنا فيللا خالية تؤجر لطلاب المتعة : "رآه هذا الجن (أشار ناحية ابن أخيه)، ولأنه يعتقد أن كل ملتحٍ متدين، صاح في وجه أبيه المرحوم: "راه دخلها أبّا.. راه دخلها ولد الحرام".

أحيانًا، كان يسكن فيها بعض النصارى، لا يغادرون الشرفة طوال النهار، وكانت عيونهم تتابع كل شاب يمر من أمامهم... (توقف "التيباري" عن الحكي. لم أحاول أن أعرف منه أية تفاصيل، وحين لاحظ عدم اهتمامي بحكاية السياح الأجانب المثليين واصل سرده). هذه الفيللا كان حارسها متواطئًا مع حراس باقي الفيللات المجاورة، ويؤجرها دون علم صاحبها، كما عرفت من المرحوم عبد الله، الذي ربطته صداقة بهم.

أغلبهم تحولوا إلى سماسرة يؤجرون الفيللات، التي يوجد أصحابها خارج المغرب، ولم يكن الجيران يعبأون بما يحدث.. ربما اعتقدوا أن ذلك باتفاق مع أصحابها. المهم ألا تكون هناك فوضى أو موسيقى صاخبة، لهذا كان سماسرة الحب يتجنبون الشباب، وحين حدثت الفضيحة ألقي القبض على حارس الفيللا...

ماتت فيها امرأة مختنقة في الحمام بسبب تسربات الغاز، كانت امرأة متزوجة، زوجها يعمل في الخارج، وهي موظفة بالبنك. هناك من يظن أنه انتقام سماوي، فقد اعتادت أن تخدع الرجال. كلما رأت زبونًا غنيًا، أوقعته في شباكها.. تتفق معه على مبلغ يكفي لشراء كبش. جمالها الفاتن كان ورقتها الرابحة. تطلب منه أن ينتظرها أمام البنك، وتأخذه إلى إحدى الفيللات بسيدي بوزيد، وكانت تغير الفيللا كل مرة، وتتفق مع الحارس بأن يقرع الجرس بعد خمس دقائق، ويضطر المغفل أن يرتدي ثيابه على عجل، غير عابئ بالمبلغ الكبير، وهي تدعي أن زوجها قد حضر، وأن الخادمة تنبهها... هذا ما تداوله الحراس، مع أنها لا تسكن بسيدي بوزيد، ولا يعرفون أين تسكن، لكن أغلبهم منحها نسخة من المفاتيح، وقبل مجيئها تتصل بهم، وكانوا يعتبرون أفضل يوم لديهم ذلك الذي تزورهم فيه..
كل شيء يبقى كما هو.. فضلًا عن سخائها.

أرى في عينيك سؤالًا.. إجابته بسيطة؛ السيدة موظفة بالبنك، ويبدو أن المال أعماها، مثلما يعمي جمالها الأبصار. لا شك أنها لم تستطع أن تقاوم إغراءهم، وفضلت المبيت معهم. تخيل امرأة مع ثلاثة رجال. حين انتبهوا إلى طول غيابها في الحمام، اكتشفوا موتها اختناقًا. هربوا، وكانوا سكارى. انقلبت سيارتهم، وماتوا.. ووجد رجال

الشرطة في السيارة أشرطة وكاميرا، وكأن الله لم يقبل أن تفتضح هذه المرأة الميتة على أيدهم بعد أن صوروها، فانتقم منهم...
يقولون أنهم ليسوا مغاربة، إنهم من العرب الذين....".

سكت "التيباري" عن الكلام المباح، وقد ارتسمت على ملامحه آيات التأثر، واستطرد : "لا أعرف ما الذي حدث للناس، هل المال يغيرهم إلى هذه الدرجة؟ تخيل أن "ولد سلّام" لم يحضر عزاء ابن عمه، الكل مستاء من تصرفه، إنه لا يختلف عن باقي النواب، الذين لا يظهرون إلا في أيام الانتخابات. لكن هذا ابن عمه، هل يظن نفسه "سيخلد فيها"؟ هل غيّره المال؟ والده ضيّع كل أرضه بسبب مجونه.
أبي كان يحدثنا - دومًا- عن ركضه وراء حفلات "الشيخات"، كان يتبعهن بحماره العجوز أينما نصبن خيمتهن المهترئة. اليوم، تغيّر كل شيء، صرت تشاهدهن على التلفزيون، وأنت مستلق على سريرك. لم يعد أي أحد يعاملهن كعاهرات متشردات".

ضج "التيباري" بالضحك، وهو يستحضر حادث احتيال عبد الله على جاره الساذج، قال له : "سلفني زوجتك، لأن زوجتي على وشك الوضع، وحين تكون زوجتك حبلى أسلفك "التيبارية"...".
طبعًا، ليس من اللائق أن أسأله عما حدث، لكن ما يعرفه الجميع أن أمرهما افتضح، لأن الرجل الأبله أخبر الجميع باتفاقهما، وهربت المرأة العاقر.. بعد تشهير زوجها بها. ربما اعتقد المسكين أنها ستنجب إن أعارها لرجل آخر.. بيد أن حمار سلّام، جعلني أستغرب كيف يطمس "التيباري" حكاية حماره، الذي أرعب بنهيقه المصطافات بسيدي بوزيد.

---

1 : المعنى الحرفي : "إنه عائلتك"، والمقصود أنه أحد أفرادها.
2 : ما باليد حيلة.

يذوبون في عمق الإطار، هائمين على أوجههم، وأصواتهم الصاخبة تتناهى من بعيد، مبهمة وغير مميزة

لم أجدهما عند استيقاظي. لا شك أنهما غادرا تحت جنح الظلام. غرقت في أفكاري الصباحية السوداوية : **"لماذا نأتي إلى هذه الحياة؟ ألكي نتعذب فيها فقط؟ ما أتعس من أطال الله أعمارهم، مثل "أمي عايشة"، فيصيرون عاجزين عن الحركة، وحتى عن قضاء الحاجة!!..**

هذا الجسد أسّ شقائنا البشري.. نتألم (نتعب) من أجل لقمة العيش، وحين توشك رحلة العمر على الانتهاء يتحول إلى سلسلة آلام لا تنتهي، ونتمنى موتًا مريحًا، عذبًا. أليس غريبًا أن يفكر شاب في الرابعة والثلاثين بعقلية من هم في أرذل العمر؟ لكن الشيخوخة لا تقاس بالسنوات. في نصوص البدايات المتعثرة، كتبت في خاطرة عبارة : "خريفي الثامن عشر". لم تكن مجرد استعارة أو مجاز، كنت أحس بأنني ولدت شيخًا.. لكن، الآن، أحس بأنني صرت أكابد قلقًا وجوديًا، كما أتعذب بوعيي الشقي الحاد. بيد أن القلق الانطولوجي، الذي سيطر على محمد زفزاف في كتاباته الأخيرة، والتي تزامنت قراءتي لها مع بداية النشر في الصفحات الشبابية، ما بعد منتصف تسعينات القرن الماضي.. لم تؤثر علي، لأنني رحت أبحث عن كتاباته الأولى، لكن، بماذا كان سيعلق زفزاف حين يطلع على ما يعرف بالأدب النسوي، الذي تتفنن صاحباته في وصف أدق تفاصيل العملية الجنسية؟

لقد اعترف لي صديق شاعر كهل بأنه انقض على زوجته، غب قراءة نص لإحداهن، نص من تلك النصوص، التي يشبه مفعولها تأثير الحبة الزرقاء. لا لوم على الناشر- التاجر فهو يبحث عن الربح، حتى لو تحول إلى نخاس أو قواد، والكاتبة تصير مشهورة، وتتهافت عليها الصحف والمجلات لاستكتابها، مع أنها لا تجيد كتابة

جملة مفيدة، ونصف عمودها كتابة عامية، تعج بالجرائم اللغوية، ومع ذلك تجدها في عمودها تفتي في كل أمور الحياة بأسلوبها الركيك، وتستضيفها الفضائيات في برامجها الحوارية، ولا أحد يتصل هاتفيا بكبار الكتاب حتى لمعرفة إن كانوا مازالوا على قيد الحياة. هل خطر ببال الكاتبات الجميلات المفتونات بشبابهن وأنوثتهن بم سيحسن وهن على حافة القبر، وهن على وشك مغادرة هذه الدنيا، يتألمن عند قيامهن بأبسط حركة في خريف العمر؟

ما أغباني!! لقد نسيت بأن المرأة لا تحب أن تُسأل عن عمرها، لأنها تحب أن تبقى زهرة نضرة على الدوام.

هذا المونولوغ ليس موقفًا طهرانيًا، فقد جربت الكتابة الجريئة، ولم أنشر بعض قصصي المتطرفة في جرأتها ضمن أية مجموعة من مجاميعي القصصية الثلاث، (ولن أذكر عناوينها، حتى لا يعتقد البعض أنني أروج لها بطريقة غير مباشرة)، ثم إنني لا أسمح للقارئ أن يستمني على قفاي ويندلق سائله عليّ.

الأدب الحقيقي لا يرى في الحياة رجلًا وامرأة وفراشًا، لا أنكر أنني مازلت أسير تجربة عشر سنوات في أوراش البناء، وكلما حاولت الهروب وجدت تلك العوالم تتسلل إلى كتاباتي عنوة. لحظات المتعة تذوب وتتبخر بسرعة، حتى أن "لحظة الذروة" لا تتعدى ثانية، ونجد أنفسنا أسرى إكراهات الواقع، ولا نعبأ بثمار تلك اللحظة العابرة.

سيقول أحدكم متفاصحًا: "إنها نواميس الطبيعة"، سأرد: حتى الكلاب تتناسل أيضا، وبطريقة همجية. الكلب المنتصر من سيزرع في أحشاء الأنثى المتنازع عليها بذرة أحد الجراء، ولن يخطر بباله إن كان ذلك الجرو سيعيش سعيدًا، أو يتصور عدد من سيركلون الجرو السعيد.

هذه الشهوة الحيوانية بنت كلب. تفو...

كتّاب كثيرون يلجأون إلى تسويد الصفحات بتأوهات بطلات رواياتهم على الأسرّة، ولا أنكر أن صديقًا عاتبني على كون أغلب الشخصيات النسائية في هذه النوفيللا ساقطات، مشيرًا إلى وجود نماذج نسائية مشرفة بالمجتمع.. لكن هذا لم يكن موقفًا أخلاقيًا، فالشخصية النسائية التي تأسرني.. التي تقاسمني بعض جنوني، لم أكتب عنها بعد.

مؤخرًا، التقيت فتاة عانسًا، ذكرتني بصديق نجار فضل العيش في ليبيا، لأنه يؤمن بالشعوذة مثلها، ويمقت الآخرين، معتقدًا أنهم سيؤذونه... ربما لأنهما فقدا الأم، فاعتقدا أن السبب سحر الأهل. هذا الصديق من الصعب إقناعه، فعند الاختلاف معه، حتى لو كانت فكرتك صائبة، يتهمك بالخبل.. وهذه الفتاة، وجدتني محرجًا من الحديث معها في الشارع، وهي تتكلم بطريقة انفعالية، وكان بقربنا رجلا أمن، وأي عابر سبيل سيعتقد بأنني أحاول إكراهها على "المجيء معي"...

تنفست الصعداء حين غادرت، وتحسرت على الفتاة الجميلة التي كانت، عند رؤية صورة البطاقة، التي رفضت إعطاءها لمراقب التذاكر بالحافلة، وهي تتحدث بصوت عال : "لا. لا يمكن، ستأخذونها.. مثل كل مرة، وعندما أريد مقابلة الملك..."، وتندلع عاصفة من الضحك في الحافلة، بعد أن أيقنوا أنها تفكر وتتكلم، كما طفلة لم تتجاوز ربيعها العاشر، حتى لو كانت البطاقة البيضاء تشي أنها سليلة شرفاء.. بيد أن جنونها ليس مثل جنون تلك العانس الأربعينية، التي سأعرف في ما بعد أنها صارت، هكذا، بعد ليلة زفافها.. وبسحر، ففقدت عقلها والعريس معًا !

كنت أتطلع إليها، وهي تبتسم تلك الابتسامات الطفولية، ثم فاجأتني بأن طلبت مني درهمًا، وانصعت لرغبتها، غير مقاوم تلك النظرات الطفولية الملتاعة، ثم إن استجداءها بصوت مرتفع - وبلهجة آمرة- جعل طفلي المجنون يخرج من كهفه، وأمازحها، وصمتّ، أخذتُ أنظر إليها، كمن يمثل دور العاشق المتيم، وانفجرت كل الفتيات بالحافلة ضحكًا، والعانس الأربعينية المخبولة، تتخلى عن كبرياء حواء، وتسألني بصوت مرتفع إن كنت غير متزوج : "انت مامجوجش؟".

لست كاتبًا ماجنًا، يرى في النساء بغايا ..فمازلت أسير ذلك الشجن الإنساني، المخضب بخبل لم تختره المرأتان. فهل سيسنح لي القدر فرصة للكتابة عنهما، وعن الطفل الذي يستوطنني، والذي لا يكبر أبدًا؟ هل سأكتب عن قسوة السنوات على وجه، كان فاتنًا من قبل، ففقد بهاءه ونضارته، واغتصبت شعيرات بيضاء الليل الدامس؟ فتاة تأتي من أزمور كل أصيل، للبحث عن عمل بالجديدة، والجميع يعتذرون لها بأنه لا يوجد عمل مسائي، لأنها لا تنام إلا فجرًا.. وتستيقظ متأخرة، وتسألني : ما الحل في هذا الأرق؟

ذات تشرد، التقيت امرأة، لا أنكر بأنني فرحت بصيدي حين علمت أنها مطلقة. أنا عربي نذل مثلكم، طلبت منها أن نذهب إلى أي مكان.. من أجل تلك اللحظة، التي لا تدوم سوى ثانية، أخبرتني بأنها....
تخيلت الخرقة الملوثة بالدم. ربما، كذبت علي لتتخلص مني، لكن شعورًا حقيقيًا بالغثيان انتابني، وابتعدت عنها.. متناسيا أنها، قبل لحظات، طلبت مني الجلوس إلى جانبها، حتى لا يسمعنا ركاب الحافلة. هذا الإحساس جعلني أتجنب النظر إلى أية امرأة طوال النهار، مهما كان جمالها...".

وضعت الورقة في جيبي، بعد انتهائي من تحرير هذه التأملات العابرة، أحسست ببعض الراحة النفسية تتسلل إلى أعماقي، وكأنني كنت في حاجة ماسة للتنفيس عن هذا الغضب الداخلي. يمكنكم تخيل غضب لبنى، ستتهمني مرة أخرى بأنني لم أتخلّ عن

فضائحيتي، وأنني مازلت أسير "كائنات من غبار".
ليس مهما... المهم أن ننتهي من هذه الرواية.

في الخارج، ضاعف عزيف الريح تعاستي. وجدتني ألقي التحية على "السعدية" قريبة أبي، ووقع نظري على ابنتها، التي لم أرها منذ زمن. الطفلة الصغيرة، التي كنت أحملها بين يدي، وأنا أتجول بين الحقول.. تغرق في حيائها المرتبك، كأنما تداري أنوثتها التي بوغتّ بها. طلبت مني زوجة "التيباري" تناول إفطاري، أخبرتها بأنني أحتاج إلى جولة صباحية. كنت في مسيس الحاجة إلى أن أختلي بنفسي بعيدًا. يغمر الهواء الطري صدري، وأنا أقف قبالة الحقول الجرداء، التي حرث بعضها قبل أيام، وأفتقد زمن البراءة...
رأيتني - في غمرة نشوة الذكرى- طفلًا يركض بقلب طروب وسط امتداد فسيح، مفتونًا بالخضرة الموشاة بأزهار شقائق النعمان، تحت شمس الضحى، وفي الصباح الباكر، كنت أرتدي الحذاء البلاستيكي عالي الرقبة "البوط"، أجوس العشب المبلل بالندى، والشمس مازالت في خدرها.

أصغي إلى إيقاع سمفونية خلابة : خوار، ثغاء، نهيق، صياح ديكة.. مخلوقات - تبدو لي - مبتهجة مثلي بالحياة، ممتلئة بها حد الشبع، هكذا أتخيلها.. توقظني كتاكيت الديك الحبشي بصوصوتها المميزة والمحببة، فيسارع - الطفل الذي كنته- بمغادرة الفراش، وكل أقراني ما زالوا نيامًا.. مما كان يثير دهشة أقاربي. أفتح باب حجرة المخزن المجاورة لي، للإفراج عنها، وأتأمل الدجاجة وصغارها. أهمس لنفسي : "الآن، حين كبرت عرفت لم تفضل البدويات تربية الديك الحبشي، الأمر لا يتعلق بتهجين السلالات أو نقائها. إنه منطق تجاري بسيط، وهو نفس المنطق، الذي يجعلهن يضعن بيض الدجاج لأنثى الديك الحبشي، لأنها تحضن ضعف ما قد تحضنه الدجاجة، وبنفس التفكير يفضل القروي أن تنجب أتانه بغلًا، عندما يكبر يصير ثمنه أضعاف ذلك الجحش الذي قد تنجبه".

لمحت "كوثر" تفك قيد الحمار، فغرقت في خفرها، ولكي تداري ارتباكها.. انهالت بفرع شجيرة تستخدمه كعصا على أذني الحمار. أمني النفس بالكتابة عن ذلك الخفر المفقتد.. لكن، ليس قبل أن ننتهي من هذه النوفيللا. ابتسمتُ. فكادت تتعثر. ابتسمت لأن لهذا الحمار دور " كومبارس" في روايتنا، وليس للإيقاع بهذه المراهقة البريئة.

****

مبكرًا، تبدأ النهارات في القرية في فصل الصيف، حين يستيقظ أهالي المدينة للتوجه إلى الشواطئ يعود الرعاة بقطعانهم، وتمتد القيلولة بكسلها الظليل حتى العصر. وفي

الصيف، يمارس "التيباري" عدة أشغال قبل حضوره إلى الورش.. لم يصدقوا - ذات يوم- ألا يحضر، وهم في سيدي بوزيد، لأنه لا يتغيب عن العمل. ومن فوق السقالة لمحه "الفرجي"، فصاح معلنًا وصوله في ابتهاج. ضج المكان بالضحك، وهم يرونه راكبًا حماره. المقاول المغتاظ من عدم حضوره شاركهم الضحك، وهو يترجل من فوق الدابة، سألوه بصوت واحد، فرد بأسى : "تْخسّراتْ لي البشكليط"، وعلق الفرجي ضاحكًا : "كان عليك أن تفعل مثل صاحبك". تذكروا الرجل الذي يمر، يوميًا، بالقرب منهم، ويلقي التحية عليهم. هم لا يعرفون اسمه ولا تهمهم معرفته، يكتفون بعبارة "صاحب التيباري جاي (قادم)" عند رؤيته، وتندلع زوبعة من الضحك. ما كان يضحكهم أنهم يرونه يقود - كل يوم- دراجة هوائية متهالكة، تشكو من كل الأعطاب، يصر على اصطحابها معه في رحلة يومية إلى البادية، من أجل زيارة بيت مهجور يقضي به سحابة يومه، وفي المساء يعود، وهو يقود الدراجة الهوائية. يتعجبون : "لم لا يصلح الدراجة، ويمتطيها كباقي الناس ويرحم شيخوخته؟".

كانوا منشغلين بالتندر بصديق "التيباري"، لم ينتبهوا لغياب عبد الله، الذي فك قيد الحمار، وبصوت خفيض تفوه بكلمة نابية جعلت الحمار ينهق، ممزقًا الصمت الجليل للمصطاف، فاندفع الحمار الهائج وسط السائحات بحثًا عن أنثاه الموعودة. تعالت صرخات فزعة، وصدى نهيقه يتردد كلحن مرجع، ابتلع صرخات "التيباري"، وهو يأمر ابن أخيه ليمسك بالحمار : "تاسير جِيب الحمار"، وشارك الأب ابنه ضحكه بدل أن ينهره...
كان "بعية" في الأسفل، يتقافز في مكانه، وهو يضحك ضحكًا هستيريًا.

****

في طريق العودة، أغفو في استرخاء، وقد خالجني بعض القلق، بعد أن أصر سائق سيارة الأجرة على أن أضع حقيبتي في الصندوق الخلفي للسيارة، كباقي المسافرين. لم يهتم بتشبثي بها. لم أعرف كم من الوقت نمت. أغمضت جفناي، ورأيت في ما يرى النائم عبد الله ينزل من الحافلة، ينزل سعيدًا، وهو يحمل قفة، يضعها على كتفه، ليخفف من عبء ثقلها، دون أن ينتبه إلى أنها قد تعوقه عن الالتفات عند عبور الطريق.
مر من أمام الحافلة، مترقبًا تبخر الخطوات في لهفة.. دقائق، وسيجد نفسه محاطًا بحب أفراد أسرته، وهم يعبثون بمحتويات القفة.. عبر من أمام الحافلة، التي تحجب ما خلفها، والقفة على كتفه الأيسر، وكل تفكيره في الطريق الزراعية، التي ستتبخر بعد دقائق. ندت عنه صرخة أخيرة، وقد تطاير جسده في الهواء، ثم سقط غارقًا في دمائه، على حافة الطريق، ودهست السيارات المارقة حبات الطماطم والبطاطس، التي تناثرت على الإسفلت. لم يتعد المشهد ثوانيَ، والسيارة تمرق كالسهم، حاصدة روح "ولد عمي".

توقفت سيارة الأجرة في المحطة، فوجئت بأنني آخر الركاب الأخير، وعندما فتحت صندوق السيارة لأخذ حقيبة الظهر، فوجئت باختفائها.. رحت أسب سارقها، وبأقذع الشتائم... وأصرخ : إنه لن يستطيع فتح الحاسوب المحمول.. لأنه مزود بكلمتي مرور، الثانية وضعتها احتياطيًا، حين أكون بالبيت، وأكون بعيدًا عنه، فيطلب الجهاز من المتطفل كلمة المرور، أما الأولى، فبمجرد تشغيله تواجهك شاشة سوداء، يتوسطها مستطيل صغير يطلب منك كلمة السر، وبالتالي... يصعب معرفة محتويات الجهاز، ولكن الرواية ضاعت.. ضاعت. شهور من الألم والتأمل ضاعت هباءً...

بقيت أصرخ بشكل هستيري لاعنًا كل شيء، أمزق ثيابي، أحطم زجاج السيارة الملعونة، متهمًا السائق بأنه السبب : "الحقيبة كان تضم رواية، وليست سلة بيض أو تين... هاتوا الرواية، يا أبناء الـ...".

****

في صحيفة عربية سيارة، كتب ناقد عربي شاب تحت عنوان "أطرف سرقة أدبية":

اعتدت أن أتوصل بإصدارات الكتّاب، وأغلبها تظل مبعثرة منسية في حجرتي، حتى يعلو الغبار أغلفتها.. لكن، بمجرد تصفحي غلاف إحدى الروايات، قفز إلى ذهني عنوان رواية وصلتني قبل شهرين، ولم يتسن لي الاطلاع عليها.. لم أنسَ عنوانها، وإن نسيت اسم كاتبها.

اسم الرواية الأولى : "قيلولة أحد خريفي"، والثانية : "قيلولة". الروايتان من بلدين عربيين مختلفين، وتشتركان في سبعة فصول. هل هذا معقول؟!

أحيانًا، يجترح الروائيون مصيرين مختلفين - أو أكثر من مصير- لشخوص الرواية، لكنهم لا يلجأون إلى نشر كل رواية بمفردها. فهل اشترك الكاتبان في الرواية، واختلفا حول بعض التفاصيل، ولجأ كل واحد منهما إلى نشرها باسمه؟ في هذه الحالة، من سطا على إبداع الآخر؟

النهايتان تفصحان عن اختلاف رؤيتي الكاتبين، مما ينفي اشتراكهما في كتابة الفصول المتطابقة. إحداهما كانت موغلة في التفاؤل الساذج، حيث كافأ كاتبها كل شخوص الرواية بنهايات سعيدة، أما الثانية فقد أظهر كاتبها مراسه النقدي، كما حول المتتاليات السردية إلى تأملات وجودية.

عدت إلى نتاج الكاتبين، وأيقنت أن للرواية كاتب آخر، لأن لكل كاتب بصمة تميزه عن غيره، وبعض الكتّاب يعرضون مخطوطاتهم على أصدقائهم، ويبدو أن الروائي أرسل الفصول السبعة إلى الكاتبين، وربما لغيرهما أيضًا، ولسبب ما توقف عن الكتابة، وانقطعت أخباره، وبعد طول انتظار، قرر كل واحد منهما الظفر بالغنيمة.

ألا يمكن أن يكونا على علم بأن صاحب الرواية كان يرسل فصولها إليهما أو إلى غيرهما في توقيت واحد؟ لا أظن ذلك، لأنهما كانا سيتواصلان، ويتفقان على إتمام الرواية - وهذا مستبعد-، أو يتفقان على نشرها كما هي، دون وضع اسميهما، ولن يفكر أي واحد منهما في السطو على الرواية، وهو يعلم أن كاتبًا - أو أكثر- قرأ مخطوطة الرواية.

فمن هو الكاتب الحقيقي للرواية؟

****

من خارج الشاشة :

" لأننا نعرف بأن الأغلبية الساحقة من المشاهدين تعاني من الأمية، فلن نضطر إلى كتابة ما جرى لباقي الشخوص على الشاشة. بالتأكيد تريدون معرفة مصير المؤلف، لقد قبض عليه، بعد اعتدائه على سائق "الطاكسي"، وكان في حالة يرثى لها، وهو الآن ينعم بعيشه الهنيء.

يصمت صاحب الصوت الخارجي، وفي لقطة مقربة يظهر المؤلف بلحية مهملة وشعر أشعث، تبتعد الكاميرا للخلف، فنرى المؤلف يكتب بضع كلمات، ثم يقوم بتمزيق الورقة، وهو يتمتم بكلام مبهم، غير مسموع، وفي لقطة متوسطة يلوح ممددًا على عشب الحديقة، وإلى جانبه كومة من الأوراق المدعوكة، وبالقرب منه شاب يكلم نفسه، وآخر يصارع شخصًا وهميًّا، وثالث يبتسم ببلاهة للكاميرا.

(اختفاء تدريجي).

تستأنف التترات تصاعدها. يضحك الرجل، يواصل تعليقه: "هذه نهاية من يحلم بالسباحة ضد التيار.. مستشفى المجانين !!. لم تسألوني عن "ولد سلّام"..."، استأنف ضحكه مرة أخرى : "هذه الرواية طريفة في نهاياتها، مع أنها لا تتمتع بأي حس كوميدي".

يظهر "ولد سلّام" في سوق أسبوعي، وسط الغبار، ممسكًا شاة عجفاء من قرنها الصغير (يعلق الرجل ضاحكًا : هذه نعجة قرنية)، يتفاوض مع صاحبها، الذي تعكس تعابير وجهه حزنه، لأن لا أحد يريد شراء الشاة منه، ولم يعد سواه بالرحبة، لقطة مقربة - من فوق إلى تحت- لجلباب "ولد سلّام" الرث، الممزق من الجانبين. يواصل الرجل التعليق : " لقد عاد "ولد سلّام" إلى مهنته الأولى: "شنّاق"، كما نقول بلهجتنا المغربية، يتاجر في الأغنام بدون أن يكون لديه أي رأس مال، وهو يختلف عن التاجر الذي يشتري بـ"حرّ ماله"، بهيمة من الكساب، وقد يعيد بيعها في نفس السوق أو

لاحقًا... "الشناق" يطلب من صاحب البهيمة أن يتنازل له عنها مقابل مبلغ معين، ويبقى الكساب بعيدًا عن مفاوضات البيع والشراء، ويظفر "الشناق" بالفارق، الذي قد يتجاوز الثمن الحقيقي للبهيمة".

يصمت الرجل، وفي لقطة متوسطة يقلّب "ولد سلّام" أسنان النعجة، ويقسم للرجل بأغلظ الأيمان أنها لن تتعدى هذا الثمن المقترح.. يستأنف الرجل التعليق : "ما لم يذكره الكاتب من قبل أن "السي أحمد" أسس مع أربعة أصدقاء شركة للمقاولات الكبرى، جعلوه مديرًا لها، لكن سرعان ما طالب ثلاثة منهم بنصيبهم. بقي معه واحد فقط، كان يأتي معه - أحيانًا- إلى الأوراش. وهذا هو "اللي خلا دار بوه ".

هم جعلوا "ولد سلّام" يتحمل مسؤولية كل شيء، وعند تأخير الشركة في تسليم أحد المشاريع، ألزمت بدفع التعويض أو ما يعرف قانونيًا بالشرط الجزائي، وأعلنت إفلاسها، ولكي تكتمل اللعبة، أغراه صديقه بخوض مغامرة ستجعله يستعيد كل ثروته وجاهه. أغراه بأن يقامر، وبعد أن خسر كل شيء في الجولة الأولى، منحه مالًا ليجرب حظه مرة أخرى، وطلب منه التوقيع على ورقة يتنازل فيها "ولد سلّام" عن باقي ممتلكاته التي لم يحجز عليها.

(قطع).

ليل/ خارجي، أمام الملهى الفاخر، في لقطة متوسطة يرقب الرجل المكلوم (البرلماني السابق، الشناق حاليًا) بأسى سيارته، وصديقه يدير محركها، وقد سبقه السائق بالسيارة الأخرى، وقبل أن يغادر يرمى له قطعة نقدية في ازدراء على الأرض : "أجرة التاكسي".

(قطع).

نهار /خارجي، حي النجد، لقطة أمريكية يظهر فيها الرجل أمام الورش، وهو يطلب من جميع العمال إخلاء المكان. تعقد الدهشة ألسنتهم. يقول أحدهم : "من يصدق أن هذا الرجل هو نفسه الذي اعتدنا رؤيته بصحبة "السي أحمد"، يكتفي بالتحية ولا يتكلم بعدها أبدا...؟". يتلفن أحدهم للمقاول، يحضر بسرعة، يسأل عن مستحقاته.. يهز الرجل منكبيه، وبلا مبالاة : "يمكنك اللجوء إلى المحاكم. أنا صاحب الفيللا، وأريد هدمها، ولا تهمني مشاكلكم مع المالك الأول".

وفي لقطة بانورامية نرى "التيباري" يقود دراجته الهوائية مهزومًا، يتبعه باقي البنائين، يذوبون في عمق الإطار، هائمين على وجوههم، وأصواتهم الصاخبة تتناهى من بعيد، مبهمة وغير مميزة...

الجديدة : الأحد، 26 سبتمبر 2010